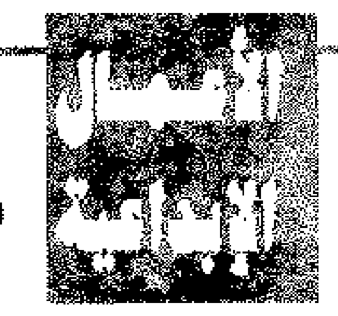


مهرجان القراءة للجميع

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

ثقوب فى الثوب الأسود

إحسان عبد القدوس

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

ثقوب فى الثوب الأسود

ثقوب في الثوب الأسود

إحسان عبد القدوس



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

ثقوب فى الثوب الأسود

إحسان عبد القدوس

الغلاف:

للفنان جمال قطب

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

إحسان عبد القدوس

بقلم إحسان عبد القدوس

●ولدت لأبي الأستاذ محمد عبد القدوس ولأمي السيدة فاطمة اليوسف التي عرفت باسم «روز اليوسف».. وكلاهما فنان.. درس أبي الهندسة وبدأ العمل موظفًا في الحكومة كناظر مدرسة الأقصر الصناعية ثم ترك الحكومة وتفرغ كلية للفن.. كان كاتبًا يكتب المسرحيات والشعر والزجل ويمثل على المسرح ويلقي مونولوجات يضع كلماتها وألحانها.. وأمي بدأت ممثلة تعيش في وسط المسرح منذ كانت في العاشرة.. والتقت مع أبي عام ١٩١٦ وأنجباني في أول يناير عام ١٩١٩.. ولكنهما كانا قد انفصلا لاختلاف نزعاتهما الفنية.. وأخذني أبي منذ ولدت وتركني لأبيه وجدي الشيخ أحمد رضوان وكان من خريجي الأزهر ومن رجال القضاء الشرعي، وكان متحفظًا إلى حد التزمت في كل ما يفرضه الإسلام، ورغم ذلك فكان متميزًا بتقدير الفن وكان يتردد عليه كأصدقاء كبار المطربين والفنانين على أيامه، كما كان مشتركًا في القضايا السياسية وكان كثير من قادة الثورة منذ أيام مصطفى كامل إلى أيام سعد زغلول يعهدون إليه بالإشراف على شئونهم إذا اضطروا إلى الهجرة خارج مصر.. وفي بيت جدي كانت الأم التي ترعاني هي عمتي السيدة نعمات رضوان وإن كان لم يحرموا أمي مني رغم عدم رضائهم عنها لأنها إمرأة متحررة تعمل بالتمثيل على المسرح..

وقد أثر على اختلاف المجتمعين اللذين أعيشهما تأثيرًا أساسيًا في تكوين شخصيتي وعقليتي.. مجتمع جدي المحافظ المتزمت في تدينه ومجتمع أبي وأمي المتحرر المنطلق.. وقد بدأت منذ وعيت وأنا أتساءل من منهما المجتمع الصالح.. مجتمع جدي أم مجتمع أبي وأمي.. ووجدت نفسي حائرًا بين المجتمعين وهو ماعودني ألا أستسلم للواقع أبدًا إلا بعد أن أدرسه وأفكر فيه إلى أن أثور عليه أو أعترف به.. وكنت منذ طفولتي أرفض التقاليد الاجتماعية لأن التقاليد أيامها كانت تظلم أمي.. ولكن أحدد تصرفاتي الاجتماعية بعد تفكير وعلى مسئوليتي الخاصة..

وقد بدأت أمسك بالقلم وأكتب منذ بدأت أعي وذلك تقليدًا لوالدي، وبلغ

التقليد إلى أنى كتبت أول مسرحية لى وأنا فى العاشرة من عمرى.. وفى عام ١٩٢٥ أصدرت والدتى مجلة «روز اليوسف» وأصبحت والدتى لا تريد أن أنمو مقلدًا لأبى وأكون مجرد أديب ولكنها تريدنى أن أتفرغ للصحافة وللعالم الصحفى والسياسى حتى أكبر وأتحمل مسئولية مجلة «روز اليوسف».. حتى أنها بعد أن كبرت قليلاً كانت ترفض أن تنشر لى أى عمل أدبى فى روز اليوسف إلى أن أرسلت يوما قطعة من الشعر المنثور إلى جريدة روز اليوسف دون أن أضع عليها إسمى فنشرت فى الصفحة الأدبية.. وكانت أول ماينشر لى فى حياتى.. وعندما أبلغت والدتى بأنى كاتب هذا الشعر المنثور غضبت وعاقبتنى بأن خصمت مصروفى الأسبوعى الذى كانت تعطيه لى.. لأنها لا تريدنى أن أكون أديبا بل تريدنى صحفيًا..

وهكذا وجدت نفسى أديبًا وصحفيًا دون تعمد أديب لأبى وصحفى لأمى.. فن واحد لم أرثه من أبى أو أمى وهو فن التمثيل.. فرغم أنى كنت أتردد معهما على أجواء المسارح إلا أننى منذ صغرى كنت أشعر بهيبة نحو فن التمثيل كأنى أخافه فلم أحاول أن أكون ممثلاً بل أكثر من ذلك فإنى إلى اليوم لا أستطيع ولا أحاول أن أقف فى مواجهة جمع من الناس لألقى خطبة أو أشترك فى مناقشة عامة بل أنى أعتذر دائما عن التحدث فى الإذاعة أو على شاشة التليفزيون..

ولأنى أعيش المجتمع الصحفى بجانب المجتمع الأدبى فقد تعرفت بكل أكابر الأدباء والصحفيين من صغرى..وبدأت من صغرى أهتم بالدراسات السياسية وكنت أشترك اشتراكا فعالا فى كل الثورات والمظاهرات السياسية منذ كنت طالبا فى المدارس الثانوية.. وبعد أن التحقت بكلية الحقوق بالجامعة تفرغت تفرغًا تامًا للدراسة ولم أكتف بدراسة القانون بل أنى درست كل الأدب العالمى وكل التاريخ العربى والعالمى وكل المذاهب السياسية ونظم الحكم التى ظهرت.. وهو ما أفادنى كثيرًا فى تكوين نفسى ككاتب..

وقد اشتغلت بالمحاماه بعد تخرجى فى كلية الحقوق ولكن فى الواقع كنت متفرغًا للصحافة، ولأنى ابن صاحبة مجلة «روز اليوسف» فقد تميزت بالحرية الكاملة فى كل ما أكتب لأن والدتى كانت قد منحتنى هذه الحرية كما منحتنى سلطة كاملة

في النشر.. وقد وصلت بحريتي إلى حد أني لم أكن أقيد آرائي بالانتماء إلى أي حزب أو الانتساب إلى أي رئيس ولا حتى الارتباط بصداقة يمكن أن تقيد رأيي.. وأنا إلى اليوم أعيش هذه الحرية..

وقد بدأ تفكيري الوطني والسياسي بالتطور السريع إلى رفض كل الواقع السياسي الذي تعيشه مصر، وأصبحت - حتى على خلاف مع أمي - أعتبر مفكراً وكاتباً ثورياً أعتمد على فكر الجيل الجديد الذي أنتمي إليه لا على فكر الجيل الذي سبقني.. وكنت مساهما بالرأي الذي أكتبه في كل الثورات التي تقوم في مصر بما فيها ثورة ٢٣ يوليو..

وقد استطعت أن أثير قضايا سياسية هامة كان أشهرها قضية الأسلحة الفاسدة.. وهي قضايا أثارت لي متاعب كثيرة فقد قبض عليّ ودخلت السجن ثلاث مرات. ووقفت أمام النيابة للتحقيق معي عشرات المرات، وحاولوا اغتيالي أربع مرات.. وكل رئيس دولة كان يدخلني السجن أو حتى كان يحاول اغتيالي كان يعتذر لي فيما بعد لأنهم كانوا كلهم يعرفون أني لست في خدمة أحد ولا أعبر عن رأي أحد ولكن دائما كاتب حر في رأيه..

وبعد أن اطمأنت والدتي على أني استطعت أن أحقق وجودي كصحفي وكاتب سياسي، منحتني نفس الحرية في نشر انتاجي الأدبي.. ومن يومها وأنا أنشر القصص التي أعتز بها اعتزازي بكل تاريخ حياتي.. ومنذ بدأت أعمل في روز اليوسف وأنا أتمنى أن أنشر مقالاتي وقصصي في الصحف الأخرى حتى أثبت لنفسي وللناس بأني لا أنشر في روز اليوسف لمجرد أنها مجلة أمي بل أني أستطيع أن أنشر في أي صحيفة...

أما عن إحساسي الخاص فإن أجمل سعادة أعيشها هو أني استطعت أن أسعد عائلتي.. أسعدت أبي بأن جعلته مقتنعا بي ولأني ساهمت في توفير الحياة الكاملة والسعيدة له.. وأسعدت أمي بأن حملت عنها المسئولية و استطعت أن أستمر بمجلة روز اليوسف.. وأسعدت أعز مخلوقة لدي وهي زوجتي وأسعدتني فقد عاشت معي إلى أن استطعنا أن نقيم هذه الحياة السعيدة.. ثم أسعدت إبني محمد وإبني أحمد

وأسعدانى بأن نجح كل منهما فى العمل الذى اختاره لنفسه وفى المكانة الاجتماعية التى وفرها لنفسه.. وأجمل ما فى حياتى اليوم وأعز من لى هم أحفادى كريم ومحمد وشريف.. وفقهم الله وشملهم برعايته كما شملنى وشمل آباءهم..

وكل هذا ليس تاريخ حياتى فتاريخ الحياة هو دائما موضوع العمر كله بكل تفاصيله يتطلب كتابا بل عشرات الكتب.. انما مجرد كلمة..

إلى الحب الذي يعيش فيّ.. ويحميني من
نفسي.. إلى حبيبتي لولا..
وإلى الطويل

احسان عبد القدوس
٢٠/٢/٦٩

— ١ —

فى عام ١٩٥٠ دعيت للاشتراك فى مؤتمر الطب النفسى الذى عقد فى مدينة بوسطن بالولايات المتحدة ..

ولم أكن فى حاجة الى حضور هذا المؤتمر ، فانى أستفيد من قراءة بحوث الأطباء العالميين ، أكثر مما استفيد من مناقشتهم .. ولكنى كنت فى حاجة الى الرحلة نفسها .. كنت قد قضيت عامين أعمل خــلالهما كل يوم .. كل يوم أغوص فى نفوس الناس ، بعقلى وأعصــابى ، لأصل الى هــذا السر الذى يسيطر على تصرفاتهم .. ورغم انى حريص دائما على تنظيم مواعيد عملى ، بحيث أترك لنفسى وقتا كافيا للراحة ، الا أنى تعبت ..

تعب عقلى ، وتعبت أعصابى ..

وسافرت الى بوسطن ، بالطائرة ..

واستغرق المؤتمر الطبى أسبوعين ، وكان أمامى بعد ذلك خمسة وأربعون يوما أقضيها اجازة ..

أين أذهب ؟

ان الذين يبحثون عن الراحة فى مكان هادىء ، مخطئون .. الهــدوء لا يريح .. بالعكس .. انه أكثر ارهاقا للأعصــاب ،

وللعقل من الضجيج .. فالراحة الحقيقية هى أن ترتاح من نفسك .. أن تجد ما يشغلك عنها .. وكل حياتك .. كل دنياك .. كل ما يحيط بك .. كل ذلك هو فى داخل نفسك .. ان عملك فى داخل نفسك .. وأصدقاءك وأعداءك فى داخل نفسك .. ومتاعبك ومشاكلك فى داخل نفسك .. فاذا لجأت الى مكان هادىء بعيد ، فأنت تبتعد عن دنياك الخارجية ، ولكنك لا تبتعد عن دنياك الداخلية التى تعيش فيها كل متاعب الدنيا الخارجية .. لأن الهدوء يتيح لك فرصة أكبر لمواجهة نفسك .. فاذا بك تجد عقلك مشغولا ، وأنت على ثلاثة آلاف ميل من مكتبك ، بنفس المشاكل التى ينشغل بها عقلك وأنت جالس فى مكتبك .. ويلم بك الصداع ، وتتوتر أعصابك .. وكأنك لست فى اجازة .. وكأنك لا ترتاح !

ولذلك تجد الرجل العنيف فى عمله ، عنيفا أيضا فى لهوه .. وكلما ازدادت مسئولياته ومشاكله كلما ازداد عنفا فى اللهو .. لأنه فى حاجة الى هذا اللهو العنيف حتى ينسى مشاكله ومتاعبه .. ينسى نفسه .. قد يخرج الى صيد الوحوش .. وقد يلعب القمار فى تهور يبلغ حتى المجازفة بكل ما يملك .. وقد يهوى مشاهدة مباريات المصارعة والملاكمة ، لأن القسوة الانسانية التى تبدو فى هذه المباريات تشغله عن قسوة نفسه عليه ، وعلى أعصابه .. وفى أحسن الفروض قد يلعب الشطرنج .. وأنا أعتبر الشطرنج لعبة عنيفة لأنها تتطلب تركيز عقلك فى صراع مع زميلك فى اللعب ، يشغلك عن صراعك مع نفسك ..



ثم اذا لم يجد الانسان بعد كل ذلك ، الراحة .. اذا لم يستطع أن يريح عقله وأعصـــابه .. لجأ الى الخمـــر ، أو الى المخدرات .. والخمر والمخدرات ليست سوى عقاقير تفقدك وعيك بنفسك .. وبمشاكلك .. وبدنياك الخاصة .. فترتاح .. ترتاح من نفسك .. ثم اذا لم تستطع الخمر أو المخدرات أن تريحك ، وصلت الى مرحلة الجنون .. وقد تصل الى الجنون الخطر .. قد تقتل مثلا .. تقتل انسانا بعيدا عن حياتك ، ولا ذنب له معك .. وكل ما هنالك أن عملية القتل نفسها تشغلك عن نفسك .. تريحك برهة من دنياك الخاصة .. انها نفس الحالة التى تدفع أحـــد أصحاب الملايين الى الخروج فى رحلة لصيد الوحوش .. والفرق .. أن الذى يقتل أسدا — بلا سبب — يسمى صـــيادا .. والذى يقتل انسانا — بلا سبب — يسمى مجنونا !!

ولهـــذا أيضا ، يتميز العصر الذى نعيش فيه بالموســـيقى العنيفة .. موسيقى الجاز .. وبالرقصات العنيفة .. السامبا .. والتشاتشا ، والمارنجى .. و .. و .. لأن الموسيقى الهادئة لم تعد تكفى لتشغل الانسان عن نفسه .. عن المشاكل المعقدة التى تواجه انسان هـــذا العصر .. بالعكس ان الموسيقى الهادئة ، كالمكان الهادىء ، تساعدك على مواجهة نفسك أكثر .. ومواجهة المشاكل التى تعيش فى داخل نفسك .. فلا ترتاح .. الموسيقى الهادئة تساعدك على التفكير فى مشكلة .. والموسيقى الصاخبة تساعدك على الهرب من مشكلة !!

ولكن هذه الموسيقى والرقصات العنيفة ، ليست من طبيعة هذا العصر وحده .. انها موسيقى ورقصات بدائية ، مقتبسة من موسيقى ورقصات القبائل البدائية .. وهـذا صحيح .. والسبب .. ان الانسان البدائى ، كانسان هـذا العصر ، كان يعيش فى مشكلة نفسـية فى حاجة لأن يهرب منها .. مشكلة الخوف .. الخوف من الطبيعـة .. والخوف من الوحـوش .. والخوف من غارات القبـائل الأخرى .. والخوف من رئيس القبيلة نفسه .. فابتكر هذه الموسيقى العنيفة ، وهو يعتقد أنه يتوسـل بها الى الآلهة ، ولكن الواقع أنه كان يهرب بهـا من نفسه .. من الخوف .. من مشكلته !!

ان الموسيقى العنيفة أشبه بالتطعيم ضد الجنون .. والانسان يطعم نفسه ضـد الكوليرا ، بنسـبة من ميكروبات الكوليرا نفسها حتى يحصن نفسه ضـدها .. وكذلك هذه الموسيقى والرقصات العنيفة ، أشبه بميكروبات الجنون .. تصيبك بجنون مؤقت مخفف .. حتى تحصن نفسك ضد الجنون الكامل .. وأنا شخصيا لا أميل الى الموسـيقى الصاخبة ، ولا أرقص هذه الرقصات العنيفة ، ولكنى فى كثير من الحالات المرضية التى مرت على ، كنت أنصح المريض ، بأن يتعلم رقصة المارنجى !!

و ..

ولعلى استطردت طويلا فى شرح نظرية الراحة .. آسف .. وعذرى أنى طبيب نفسى ، والأطباء عادة حريصون على تحليل كل خلجة تخطر على تفكيرهم .. ربما لأنهم يتخايلون بعملهم ،

وربما لأنهم هم أنفسهم فى حاجة الى الاغراق فى التحليل لعلهم يصلون من ورائه الى شيء جديد ..

المهم ..

كان من المستحيل على وأنا أبحث عن مكان أقضى فيه اجازتى ، أن أفكر فى مكان هادىء ، وأنا أعرف متاعب الهدوء .. وأعرف هذه السلسلة الطويلة من التحليلات التى تبدأ بالهدوء وتنتهى بالجنون ..

وبدأت أبحث عن مكان صاخب ..

مكان مثير .. يشغلنى عن نفسى ، وعن مشاكلى .. فأرتاح !!

وكانت صدفة .. مجرد صدفة .. عند ما مررت أمام أحد مكاتب السياحة ، ولمحت اعلانا كبيرا ، تتوسطه خريطة لافريقيا ، كتب فوقها بالخط الأسود العريض : « افريقيا السوداء » !!

وثار خيالى ..

ثار وراء القصص الكثيرة التى قرأتها فى شبابى عن أواسط افريقيا .. أو عن افريقيا السوداء .. ثار خيالى وراء هذه الصور الغامضة المثيرة التى لا زلت أحتفظ بها لافريقيا .. صور الغابات .. والوحوش .. وقبائل نيام نيام .. وطرزان !

والخيال لا يحده شيء الا ما تحتفظ به فى رأسك من معلومات .. فاذا لم يكن فى رأسك معلومات عن موضوع ما ، تساوى خيالك حول هذا الموضوع ، بخيال الأطفال ..

وقد أحسست بنشوة الطفل ، وأنا أتصور نفسى فى أواسط افريقيا .. أتصور نفسى طرزان !

وبسرعة .. وبلا تردد .. قررت أن أقضى اجازتى فى أواسط أفريقيا !

وبعد خمسة أيام كنت أسير فى شوارع « دكار » عاصمة وميناء السنغال — أو عاصمة السودان الفرنسى كما كان يسمى قبل الاستقلال — وعلى رأسى قبعة كبيرة بيضاء من الفلين .. نفس القبعة التى كان يضعها على رأسه الرحالة « استانلى » الذى اكتشف مجاهل افريقيا !!

وصدمتنى دكار عند ما رأيتها لأول مرة من بعيد .. انها مدينة كبيرة ، ترتفع فيها عمارات شاهقة حديثة .. ويسير فيها ترام وأوتوبيس وتعرض فى نوافذ الحوانيت آخر أزياء باريس .. ليس فيها أثر لطرزان .. ولا لشيتا .. ورغم ذلك ، فما كدت أسير فى شوارعها خطوات حتى أحسست بنفسى فى افريقيا .. احساس مثير غريب يدفعنى الى أن أبحلق فى الوجوه ، كأنها ليست وجوها عادية يمكن أن أقابلها فى أى بلد آخر .. ليست وجوه الوطنيين السود وحدهم ، بل أيضا وجوه الأجانب .. الأجانب البيض .. كل وجه يثير خيـالى .. فأتخيله من عالم آخر .. أتخيل الوجه الأبيض كأنه فى حقيقته وجه أسود مدهون بالبياض ، وأتخيل الوجه الأســود كأنه وجه أبيض مدهون بالسواد ..

ورائحة زاعقة حادة ، تملأ أنفى .. رائحة افريقيا .. ان هذه الرائحة تلاحقنى فى كل مكان .. تلاحقنى حتى وأنا فى دكان الحلاق الفرنسى ، يحلق لى ذقنى ، وفتاة فرنسية شقراء تقص لى

أظافرى .. وزجاجات العطر الفرنسى مرصوصة أمامى .. ان كل ما فى فرنسا من عطور لا يستطيع أن يتغلب على هذه الرائحة الزاعقة .. رائحة افريقيا .. انها رائحة عجيبة تربطك بالأرض التى تسير فوقها .. تشدك اليها .. كأنها تناديك الى باطنها ..

وشعور غريب بالرهبة يملأ صدرى كالهواء البارد .. انها رهبة أشبه بالخوف .. خوف لذيذ .. فى كل خطوة أنتظر شيئا مثيرا .. كأنى أنتظر أن يخرج على أسد .. أو كأنى أنتظر أن يقفز على كتفى قرد .. رغم أنى أسير فى شوارع مرصوفة ، وضجيج عربات الترام والأوتوبيس يملأ أذنى ..

ولم يزايلنى هذا الشعور — شعور الرهبة اللذيذ — طوال الأيام الأربعة التى قضيتها فى دكار .. ولكنى أحسست بهذه الرهبة تشدنى الى داخل افريقيا .. انك عند ما تبحلق فى الماء مدة طويلة تحس أنك تهم بالقاء نفسك فيه .. وهذا ما أحسست به .. أحسست أنى أريد أن ألقى نفسى داخل افريقيا .. أن ابتعد عن الميناء .. عن البحر .. .. وأكتشف ما وراءه !

وركبت القطار الى مدينة باماكو .. فى قلب افريقيا .. وعيناى طول الطريق تتسلقان الأشجار التى يمر وسطها القطار .. وأفرح كالأطفال عند ما أرى عن بعد قطيعا من الغزلان .. أو الفيلة .. أو الزراف .. أو مجموعة من القردة .. وأشهق عند ما تلتقى عيناى بالأجساد الافريقية الفارهة تقف فى كبرياء كأعواد الأبنوس .. وتتكشف الشفاه القاتمة عن ابتسامات بيضاء .. فى لون الشمس .. فى لون اللبن الطازج .. فأبتسم لها .. أحس

أنى أغرق فى هذه الابتسامات . أحس كأنى أريد أن أقدم نفسى لتأكلنى هذه الأسنان البيضاء ..

ونسيت ..

نسيت القاهرة ..

ونسيت عيادتى ..

نسيت أنى طبيب ..

نسيت اسمى ..

نسيت نفسى ..

انى أعيش بكلى فى نشــوتى المثيرة .. فى هــذه الرهبة اللذيذة .. وفى هذا الخوف الساحر !

ووصلت باماكو تعبا ..

تعبا من نشوتى ..

وذهبت الى الفنــدق الوحيد فى المدينــة .. فندق الجراند أوتيل .. ونمت مباشرة ..

واســتيقظت فجأة على صــوت طرقات ملحة على باب غرفتى ..

لم أكن أدرى كم نمت .. ولكنى لمحت ضوء الشمس يتسلل من خلال النوافذ الخشبية .. ونظرت فى ساعتى .. السادســة والنصف .. والطرقات لا تزال تلح على بابى ..

وقمت وفتحت الباب

وما كدت أفتحه حتى انطلق فى وجهى رجل فاتح ذراعيه ، وهو يصيح بلغة عربية ضخمتها اللهجة اللبنانية :

— أهلا .. أهلين .. مصري هنا .. في باماكو .. يا أهلا .. يا أهلا ..

ومددت يدي أصافحه وأنا لا زلت في ذهول المفاجأة وأتمتم :

— أهلا بك ..

ولكنه رفض يدي الممدودة ، وفتح ذراعيه على آخرهما ، وهو يصيح بلهجته المضخمة :

— اسمح لي أقبلك يا أخي .. هذه فرصة نادرة .. مصري هنا في باماكو .. يا أهلا يا أهلا ..

ثم احتواني بين ذراعيه ، وضمني بقوة ، وقبلني فوق وجنتي وهو يضرب على ظهري ..

ثم دخل الى الغرفة ، وأغلق الباب وراءه .. وهو يقدم لي نفسه ..

اسمه سامي الداعوق .. مهاجر لبناني يشتغل بالتجارة .. وأديب !

ولم يكف عن الكلام ..

تكلم عن القاهرة .. وعن بيروت .. وعن باماكو .. وتكلم في السياسة .. وفي الأدب .. وألقى قصيدة من نظمه ..

وأنا أنظر اليه .. أحاول أن أقرأ وجهه .. انه في الثلاثين أو الثانية والثلاثين .. طويل .. قوي البنيان .. أسود الشعر .. ملون العينين .. بشرته تميل الى اللون الأسمر .. ولكني لا أستطيع أن أقرأ شيئا في وجهه .. ربما لأن كلامه الكثير يهز

صورته بعنف .. ورغم ذلك — رغم كلامه الكثير — فهو ليس ثقيل الدم .. بالعكس .. لقد أحسست بعد دقائق أنى أعرفه من زمان طويل .. وبدأت أتصرف معه وأمامه كأنه صديقى ..

وسألنى خلال كلامه الكثير :

— حضرتك دكتور باطنى ؟

قلت وأنا أبتسم .

— لا ..

قال :

— جراح !!

قلت :

— لا ..

قال :

— دكتور أسنان أذن ؟

قلت :

— لا ..

قال وقد انطلقت كل لهجته اللبنانية الحادة :

— يخرب بيتك .. شو بتكون .. دكتور حيوانات !

قلت وأنا أضج بالضحك :

— لا . . دكتور نفسانى !

وسكت سامى مرة واحدة .. سكت عن الكلام .. وعن الضحك .. ومر بأصابع مرتعشة فوق عامود السرير الذى أجلس عليه .. ثم قبض عليه وضغط بقوة .. كأنه يقاوم شيئا فى

نفسه .. ثم قال فى صوت خافت كأنه تغلب أخيرا على نفسه :

— تشرفنا ..

ولم يلحظ سامى أنى لمحت ارتعاشة أصابعه .. وأنا نفسى لم أعلق أى أهمية على هذه الرعشة ، ولا على سكوته المفاجيء ، وخفوت صوته .. فما لبث سامى أن عاد الى طبيعته والى كلامه الكثير ..

وانتظرنى الى أن اغتسلت وارتديت ثيابى ، ووضعت فوق رأسى هـذه القبعة الكبيرة الفلين التى كان يرتديها الرحالة ستانلى .. ثم نزلنا معا الى قاعة الطعام فى الفندق ، وتناول معى طعام الافطار .. ثم خرج يطوف بى فى أنحاء المدينة ..

وهو لا يكف عن الكلام .. لا يترك شيئا يمر به دون أن يعلق عليه ، فى سخرية مرة .. حيا وهو يسير بجانبى صديقا له ، ثم التفت الى بمجرد أن ابتعد عنه الصديق ، وقال :

— انه مهاجر لبنانى أيضا .. أتدرى كيف جمع ثروته .. لقد جاء أبوه الى هنا منذ خمسين سنة ، مفلسا ، وأخذ يبيع التراب للزنوج المسلمين على أنه تراب مكة .. وجمع بذلك ثروة وبدأ يتاجر .. وأصبح مليونيرا !!

وابتسمت ..

وأنا أتشاغل عن كلام سامى بالتلفت الى الوجوه التى أمر بها .. وجوه سمراء حلوة ، تنتشر بينها وجوه بيضاء ، كالثقوب فى ثوب من القطيفة السوداء .. وأزياء النساء تشغلنى .. عمامة من الحرير الملون الزاهى فوق الرأس .. وعباءة فضفاضة من

قماش شفاف مطرز فوق ثوب واسع فاقع اللون .. أحمر فاقع .. أصفر فاقع .. أخضر فاقع .. أي لون فاقع .. وبائعات المانجو يسرن كالقطيع ، كل منهن وراء الأخرى وعلى رأسها حمل ثقيل من المانجو .. ان بائعات المانجو هناك كبائعات الفجل عندنا .. وأصواتهن تنطلق رفيعة ، لها رنين كرنين جلاجل معلقة فى أقدام غزال شارد ..

وياماكو مدينة صغيرة ، تنقسم الى قسمين .. قسم للأجانب ، وقسم للأهالى الوطنيين .. فى القسم الأجنبى عمارات ، وفيلات ، وشوارع مرصوفة .. وفى القسم الوطنى بيوت من طين ، وشوارع متربة .. كأى بلد مستعمر آخر !

وانتهينا من الطواف بالقسم الأجنبى فى مدة أقل من ساعة .. وقلت لسامى :

— لنذهب الى الحى الوطنى !

ورفع سامى رأسه الى بغتة ، وقال بحدة :

— لا .. ليس الآن !

ونظرت اليه بتعجب .. ولكنه عاد وخفف حدته بسرعة ، واستطرد قائلا كأنه يعتذر لى :

— لنر النهر أولا ..

وسرنا فى اتجاه النهر .. نهر النيجر .. وفى الطريق توقفت قليلا ، وأخرجت آلتى الفوتغرافية ، وقلت وأنا أشير الى فريق من النساء الوطنيات متجمعات حول بائع :

— هل أستطيع أن التقط هذه الصورة ؟

ونظر سامي الى حيث أشرت .. الى النساء الوطنيات .. ثم عاد بعينيه الى سريعا .. كأنه غضب مني ، وقال وقد احتدت لهجته مرة أخرى :

— لا .. لا .. انهن يغضبن من التصـــوير .. ستجد عند النهر مناظر جميلة !

وتعجبت أكثر ..

ولم يحاول سامي أن يفسر حدته هذه المرة .. ولكنه أرخى عينيه وسار في خطوات سريعة ونظراته فوق بوز حذائه ..

وقد تنبهت الى أن سامي يســـير دائما وهو ينظر الى بوز حذائه .. يتكلم .. يتكلم كثيرا .. دون أن يرفع رأســـه ، أو يتلفت حوله .. كأنه يخاطب نفسه .. كأنه يخشى أن رفع رأسه أن يرى شيئا لا يريد أن يراه ..

وقد بدأت هـــذه الملاحظات التي أجمعهـــا عن ســـامي تضايقني .. انها تذكرني بأني طبيب نفساني .. تذكرني بعيادتي .. وتدفعني الى العمل .. وأنا أريد أن أنسى .. لا أريد أن أعمل .. أنا في أجازة !!

وسرت بجانبـــه ، وأنا أحاول أن أركز كل ذهني فيمـــا أشاهده حولي ، حتى لا أعود فأجمع عنه مزيدا من الملاحظات .

ووصلنا الى النهر ..

نهر النيجر ..

انه نهـــر قد لا يزيد في اتســـاعه عن نهر النيـــل في بعض أجزائه .. ورغم ذلك فقد أحســـت أن فيه شيئا ليس في نهر

النيل .. فيه غموض .. وفيه قسوة .. وفيه توحش .. وصوت تدفق مياهه ، كأنه زئير مكتوم .. ومجرد اسمه .. « النيجر » .. يثير فى هذا الوهم الكبير عن أواسط أفريقيا .. ولا يخفف من هذا الوهم لنشات وبواخر المستعمرين المربوطة على شاطئه .. خيل الي أن النهر وهو يزحف تحت اللنشات والبواخر يحاول أن يشدها الى باطنه .. يحاول أن يبتلعها .. و .. وفى جانب من النهر بعض البنات البيض .. بنات الفرنسيين والمهاجرين .. يسبحن ، وهن مرتديات مايوهات بيكينى .. ورغم ذلك لا يستطعن أن يخففن من قسوة النهر ، أو يروضن توحشه .. انى أراهن كأنى أرى فتيات السيرك يلعبن فى فم الأسد .. وفى جانب آخر .. بعيد .. بعيد جدا عن منطقة المستعمرين ، تجلس على الشاطىء بعض النساء الوطنيات يغسلن ثيابهن ، وصدورهن العارية تتدلى أمامهن كقوالب العنبر ..

واتجهت الى النساء الوطنيات لألتقط لهن صورة فوتغرافية ..

ومرة ثانية احتقن وجه سامى .. وارتعشت يداه .. وخلجة فوق شفته العليا ترتعش بشدة ..

ثم صرخ كأنه لم يعد يستطيع أن يطيق :

— لماذا تريد تصويرهن .. انهن زنوج .. عبيد .. متوحشات .. خير لك أن تقتلهن .. يجب أن يقتلن .. كل العبيد يستحقون القتل .. سأقتلهم .. نعم .. سأقتلهم !

وكان يصرخ هذا الصراخ ، وهو لا ينظر الى .. كان ينظر

الى لا شيء بعينين تائهتين .. والخلجة فوق شفته العليا ترتعش بعنف ، حتى خيل الى أنها ستنخلع من وجهه ..

ونظرت اليه فى دهشة ..

فوجئت بهذه الحالة ..

ولكنى تنبهت الى أنى يجب ألا أشعره بحالته .. ان أول مبادىء علم النفس ألا تشعر المريض بأنه مريض ، بل يجب أن تنتظر الى أن يعترف لك بمرضه ..

وتظاهرت بعدم الاهتمام .. ثم قلت بلا مبالاة :

— أظن أن منظر الفتيات البيض أجمل ..

ثم اتجهت الى الناحية الأخرى .. ناحية بنات المستعمرين والمهاجرين .. وتركت سامى ورائى مركونا على جذع شجرة ، وصدره يضج بأنفاسه ..

وأخذت ألتقط بعض الصـــور ، وعقلى مشــغول بحالة سامى .. لقد خيل الى عند ما رفض أن يصحبنى لزيارة الحى الوطنى ، ثم عنـــد ما رفض أن يســـمح لى بتصـــوير البنات الوطنيات ، انه يعطف على الوطنيين السود .. ويغار عليهم .. ولكنى الآن أسمعه يطالب بإبادتهم .. حالة عجيبـــة .. ورغم ذلك فلم أكن مستعدا لبحث هذه الحالة .. انى فى اجازة ! .

وتشاغلت بالتصوير بدة تكفى حتى يستريح سامى وتهدأ أنفاسه .. ثم عدت اليه وقلت وأنا ابتسم له ، ابتسامة كبيرة :

— والآن .. الى أين ؟ !

قال فى اختصار :

— نعود ..

ولم أعترض ..

عدنا فى الطريق الطويل الذى جئنا منه .. وسامى صامت يسير وهو ينظر الى بوز حذائه ..

ويبدو أن السير مكنه من السيطرة على نفسه ، فقد رفع رأسه ، وقال كأنه يعتذر لى :

— ان هؤلاء العبيد يتلفون أعصابى !

قلت وأنا ابتسم :

— لعله هذا الجو الحار الرطب ..

قال :

— لا .. انهم هؤلاء العبيد !

وتعمدت ألا استمر فى مناقشته .. فأشرت الى أحد البنايات الحكومية التى مررنا بها وسألته عنها .. وأجابنى .. وعاد الى طلاقة لسانه .. الى كلامه الكثير ..

وودعنى على باب الفندق ..

وواعدنى على أن يمر على فى المساء .

***

وفى المساء صحبنى سامى الى مقهى فى الهواء الطلق على شاطىء النيجر .. تعزف فيه فرقة موسيقية كل أفرادها من البيض .. وتتوسطه حلبة رقص .. والمقاعد تنتثر تحت الأشجار .. مقاعد كبيرة مريحة كأنها أعدت للنوم لا للجلوس ..

وصاحبة المقهى سيدة فرنسية سمينة ، مصبوغة الشعر ، تجلس الى « الكيس » وتنظر الى الزبائن كأنها تفتش جيوبهم بعينيها .. والمقهى اسمه « فانى » ..

وجلس سامى على المقعد المريح ، وقال وهو يتنهد :

— أتعرف .. أن هذا المقهى محرم دخوله على الزنوج !

قالها كأنه يعلن أنه فى منطقة الأمان !

ثم بدأ يتكلم فى استرخاء .. وأنا مسترخ بجانبه .. ونسمات الليل الافريقى تتسلل من تحت ثيابنا وترطب أجسادنا الساخنة .. والقمر الافريقى يلقى نوره على حواف أوراق الشجر ، فتبدو كأنها أوراق من الذهب .. انى أحس هنا أن القمر .. قمر طبيعى .. كالغابات .. كالجبال .. كنهر النيجر .. كوجوه البنات الافريقيات .. وكنت أحس بالقمر فى أمريكا ، وهو يطل على ناطحات السحاب ، كأنه قمر صناعى ..

وأخرج سامى شيئا من جيبه ، أشبه ببذرة المانجو .. لونها أحمر مخضب بالأصفر .. وقطع منها قطعة صغيرة بأسنانه ، وضعها تحت لسانه ، وأعاد البذرة الى جيبه ..

وقلت له فى تعجب :

— ما هذا ؟

قال فى بساطة :

— كولا ..

قلت :

— ما هى الكولا ..

قال :

— ألا تعرف الكوكاكولا .. هـــذه هي الكولا .. وهى تنمو هنا بكثرة ..

وأخرج الحبة من جيبه ، وقال وهو يناولها لى :

— جرب ! !

قلت وأنا أقلب الحبة بين أصابعى :

— ما مفعولها ..

قال :

— منشـــطة .. الزنوج الأغبيـــاء يعتقدون أنها منشطة للنواحى الجنســـية .. لأنهم حيوانات .. ولـــكن الواقع أنها منشطة للذهن .. فقط !

وقطمت من الحبة قطعة صغيرة ..

ان طعمها مر ..

مرارة تشق اللسان ..

وبصقتها توا من بين شفتى .. وأنا أنظر الى سامى كأنى أسأله كيف يتحمل مرارتها .. ثم قلت :

— هل يدمنها الزنوج ؟

قال :

— نعم ..

ثم بسرعة انطلق كأنه أخطأ :

— كل الناس يأكلونها هنا !

وأخذنا نتحدث عن الكولا .. وأنا أقارن بينها وبين القات

الذى يدمنه أهل اليمن .. وفجأة .. رأيت سامى يعتـدل فى جلسته .. وتتفتح عيناه فى ذعر .. وهو ينظر بهما ناحية الباب .. وهذه الخلجة فوق شفته العليا تبدأ فى الارتعاش ..

وتتبعت عينا سامى المذعورتان .

فتاة زنجية دخلت من الباب ..

لعلها فى التاسعة عشرة .. قوامها فاره .. ممتلىء .. ترتدى الزى الوطنى وابتسامتها حلوة تخلع القلب .. وعيناها تضيئان وجهها بشعاع قوى من النور ..

واتجهت الفتاة الينـا .. وتثاقلت خطواتها وهى تمـر من أمامنا .. وألقت الى سامى بابتســامة كبيرة .. ونظــرة تضج بالنور .. ثم اتسعت خطواتها واستمرت فى سيرها .. الى أن خرجت من الباب الآخر للمقهى ..

والخلجة فوق شفة سامى العليا ، تزداد ارتعاشا .. تكاد تنفصل عن وجهه .. وعيناه تبرقان ببريق مذعور .. وأنفاسه بدأت تتهدج .. وقطرات من العرق بدأت تنبثق فوق جبينه .. وهــو متشبث فى مقعـده بكلتا يديه .. كأنه خائف .. كأنه يقاوم ..

ثم قال فى صوت محشرج دون أن ينظر الى :

— عن اذنك ..

وقام قبل أن أجيبه ..
وتبع الفتاة ..

* * *

وانتظرت أن يعود سامي ..
انتظرت حتى منتصف الليل ..
ولم يعد ..

— ٢ —

.. تركت مقهى « فالى » وعدت الى الفندق ، وكل عقلى مشغول بدراسة شخصية سامى .. أصبحت شخصيته أمامى ، كمشكلة حسابية عويصة .. مثيرة .. وبدأت مهنتى كطبيب نفسانى ، تغلبنى .. انها ليست مهنة فحسب ، انها هواية أيضا .. ووجدت نفسى أبتعد عن اهتمامى بأواسط أفريقيا ، وأركز كل ذهنى فى حل المشكلة التى صادفتنى .. بل أحسست أنى لو اكتشفت سر سامى ، فكأنى اكتشفت أكبر أسرار افريقيا ..

وفى الفندق فتحت نوتة مذكراتى ، وكتبت فيها : « زارنى اليوم مهاجر لبنانى اسمه سامى الداعوق .. مرتبك الشخصية ، الى حد يدفعنى الى دراسته » !

ثم طويت نوتة المذكرات وبدأت أنام ، والملاحظات التى التقطتها عن سامى تمر أمامى كشريط سينمائى .. كلامه الكثير .. وطريقة مشيته وهو لا يرفع عينيه عن بوز حذائه .. ثم تضارب عواطفه نحو الزنوج الوطنيين .. أحيانا يبدو كأنه يغار عليهم من الأجانب .. وأحيانا يطالب بابادتهم ويسميهم عبيدا متوحشين .. ثم هذه الرعشة السريعة العنيفة التى ترتعش بها خلجة وجهه فوق شفته العليا ، والتى أصابته وأنا أحاول أن



ألتقط صورة للنساء الوطنيات .. ثم أصابته مرة ثانية عند ما دخلت المقهى هذه الفتاة الزنجية ، ونظرت اليه ، فقام وراءها ولم يعد .. و ..

ونمت .. والشريط السينمائي لا يزال يدور فى عقلى ..

وفى الصباح الباكر .. فى الساعة السادسة والنصف .. فتحت عينى على طرقات عنيفة على بابى ..

ودخل سامى ، يصيح كعادته بلهجته اللبنانية ، وكل حرف علا شدقيه :

— ألا زلت نائما يا دكتور .. ان باماكو تبدأ الحياة فى الساعة الخامسة ..

والطلق فى الكلام ..

ولكنه لم يحاول أن يعتذر عما حدث منه ليله أمس .. لم يعتذر عن تركى فى المقهى دون أن يعود الى .. بل لم يحاول اطلاقا أن يتحدث عن ليلة الأمس ..

ودققت النظر فى وجهه .. ان وجهه باهت .. وعينيه مكدودتان ، تعبتان .. رغم الابتسامة الكبيرة التى يحاول أن يحتفظ بها بين شفتيه .

ثم ..

فى رقبته خدش رفيع .. يبدو أنه خدش من ظفر حاد ..

وتوقفت عيناى على هذا الخدش .. وبحركة لا ارادية ، رفع سامى كفه ، ومسح به على الخدش .. كأنه يحاول أن يخفيه

عنى .. أو كأن نظرتى قد لسعته .. ولكنه لم يقل شيئا عن هذا الخدش .. استمر فى كلامه الكثير المبعثر ، ثم قال :

— آسف يا دكتور .. لن أستطيع أن أرافقك اليوم عندى عمل كثير فى المحل .. ولكنك مدعو عندنا على الغداء .. أخى سليم يريد أن يراك .. يريد أن يشم فيك رائحة مصر .

وأنا أكره الدعوات .. وخصوصا الدعوة الى الغداء .. ولا شىء يفسد الرحلات الا قبول الدعوات .. ومنذ خرجت من مصر ، وأنا أرفض كل دعوة توجه الى .. سواء كانت دعوة من السفير ، أو من صديق عابر .. ورغم ذلك فانى لم أستطع أن أرفض دعوة سامى .. كنت أريد أن أعرفه أكثر .. كنت أريد أن اكتشفه لأحس أنى اكتشفت شيئا فى افريقيا .. وكنت ملهوفا على أى خطوة تقربنى اليه ..

وتركت سامى يلح على قليلا ، ثم قبلت الدعوة .. واتفقت معه على أن نتقابل الساعة الواحدة بعد الظهر فى بهو الفندق .

وقال سامى وهو واقف عند باب الغرفة :

— أين ستذهب الى أن نتقابل ؟

قلت بلا مبالاة :

— سأتجول فى المدينة ..

قال فى تردد :

— هل ستذهب الى ...

وقطع كلامه فجأة ، وقال وبين شفتيه ابتسامة مفتعلة :

— أخشى عليك أن تتوه ..

قلت فى بساطة :

— لا تخف ..

وخرج وأنا أنظر وراءه ..

ماذا كان يريد أن يسألنى .. هذا السؤال الذى لم يتمه ؟!

هل كان يريد أن يســألنى ، اذا كنت سأذهب الى الحى الوطنى ..

ربمــا ..

لقد رفض أمس أن يصحبنى لزيارة هــذا الحى .. رفض بحدة .. ولعله لا يريدنى أن أذهب اليه وحدى ..

لمــاذا ؟

واتسعت دائرة الغموض أمامى .. ولكنى تعمدت أن أمنع نفسى من التفكير وراء هذا الغموض .. منعت نفسى من محاولة استنتاج أى شىء .. ان من مصــالح الطبيب النفسى دائما ألا يستنتج شيئا الا من خلال ما يدلى به مريضه ، حتى لا يؤثر استنتاجه الشخصى فى تحليل أقوال المريض ..

وكتبت يومها فى مذكراتى : « رأيت خدشا حديثا فى رقبة سامى .. ماذا حدث ليلة أمس ، بينه وبين الزنجية الصغيرة ؟ »

ثم ارتديت ثيابى .. القميص والبنطلون ..

ووضعت على رأسى هذه القبعة البيضاء الكبيرة المصنوعة من الفلين التى كان يرتديها الرحالة استانلى عند ما اكتشف افريقيا .. ونزلت الى بهو الفندق حيث تناولت افطارى .. ثم

خرجت أطوف مرة ثانية بشوارع مدينة باماكو ..

ولم أقترب من الحى الوطنى ..

لقد فكرت فعلا فى أن أتجول فى الحى الوطنى .. ولكنى لم أفعل .. ربما لأن اهتمامى بتحليل شخصية سامى ، جعل للحى الوطنى رهبة مثيرة تدفعنى الى أن أتردد فى الذهاب اليه .. وربما لأنى كنت أريد أن أكتشف الحى الوطنى من خلال اكتشافى لسامى .. كنت معتقدا أن التجول فى نفسية سامى ، هو بمثابة التجول فى أعمق أدغال افريقيا ..

وقادنى الشارع الطويل الذى يشق الحى الأجنبى فى باماكو ، الى كوبرى طويل مقام فوق نهر النيجر .. كوبرى أطول بكثير من كوبرى قصر النيل .. وسرت فوق الكبرى ، ونهر النيجر يزأر زئيرا مكتوما تحت أقدامى .. ومياهه الثقيلة السمراء ترتطم بشواطئه المتوحشة ، فتثير فى الرهبة .. والخوف .. والتردد .. أحس كأن كل خطوة تقربنى من مفاجأة مثيرة .. وقطرات العرق بدأت تنزف من جبينى .. والجو الحار الرطب يكتم أنفاسى .. وقميصى يلتصق بلحمى ، ويبدو كأنه قميص مغسول ، منشور فوق أكتاف .. وأنا سعيد .. سعيد باحساسى بأنى فى أواسط افريقيا !!

ووصلت الى نهاية الكوبرى تعبا .. ركبتاى بدأتا تنهاران من تحتى .. وصورة الرحالة ستانلى تهتز أمام عينى .. لو كنت أنا الرحالة ستانلى ، لما اكتشفت أفريقيا حتى اليوم !!

وعلى اليسار .. يسار الكوبرى .. مساحة كبيرة من

الشاطىء مغطاة بصخور سوداء ملساء .. صلدة .. متجهمة .. وتلتف في نهايتها حول مساحة من الرمال البيضاء الناعمة ، غرست فيها مجموعة من الشماسي الملونة ، تبدو على مدى البصر كأنها بالونات أطفال ..

وتذكرت ان سامي قال لي أن المستعمرين البيض أقاموا على شاطىء النيجر ، بلاجا .. مخصصا لهم .. أجمل من بلاج ميامي ، الذي قرأ عنه في المجلات المصرية ..

لابد أن هذا الذي أراه ، هو بلاج البيض ..

واتجهت اليه ..

كنت من فرط تعبي أريد أن أعود .. ولكن هذه القوة الدافقة التي تشدني لأستطلع كل شيء .. لأرى كل شيء في افريقيا .. شدت ركبتي المتهالكتين .. وأخذت أقفز فوق الصخور السوداء بصعوبة .. وقدمي تكاد تنزلق في كل خطوة ..

وقبل أن أصل الى مجموعة الشماسي الملونة ..

وفجأة ..

قفزت من وراء الصخور فتاتان وطنيتان ، كل منهما ملتفة فوق جسدها العاري بقطعة من القماش المبلول .. وأحد نهديها يبرز منطلقا شامخا من فوق حافة قطعة القماش .. كأنه يرفض الأسر .. يرفض أن يختبىء عن النور . والفتاتان تجريان في مرح .. احداهما تشد الأخرى من يدها .. وتضحكان .. ضحكات رفيعة لها رنين ، كضحكات العصافير ..

ووقفت أتبعهما بعينى ، وأبتسم فى مرح .. كأنى أرى الطبيعة تلهو وتضحك ..

ومرتا من أمامى ..

ثم عادتا الى .. عادت الفتاة التى فى المقدمة ، وهى تشد الأخرى وراءها .. وضحكاتهما تسقط فوق الصخور فيزداد رنينها ..

ووقفت الفتـــاة الأولى أمامى ، تنظر الى فى جرأة مرحة ، والنور ينطلق من بياض عينيها فيضىء وجهها كله .. والفتـــاة الثانية مختبئة وراء ظهرها ، تحاول أن تكتم ضحكاتها ..

ورفعت عينى عن نهد الفتاة المنطلق فى وجهى .. كنت حديثا فى افريقيا .. لم أكن قد تعودت بعد على منظر النهود العارية !!

وركزت عينى على وجهها ..

وشهقت ..

انها نفس الفتـــاة التى دخلت مقهى « فانى » ليلة أمس .. وقام وراءها سامى .. ولم يعد !!

ويبدو أنها لم تعرفنى .. يبدو أنها لم تلمحنى أمس وأنا جالس مع سامى .. انها تنظر الى كأنها لم ترنى من قبل ..

وتكلمت الفتاة فى لغة فرنسية غريبة ، تخرج من بين شفتيها كأن هناك انسانا آخر يجلس فى حلقها ويتكلم .. انسان أبيض .. وقالت وهى تكتم ضحكتها ، وتحاول أن تشد صديقتها من خلف ظهرها :

— هل تشترى أختى ؟ !!

وفوجئت بالسؤال ..

لابد أنها لا تقصد ما تقول .. انها مجرد مداعبة .. نكتة .. ولكن النكتة لها دائما أساس من الحالة الاجتماعية .. ولذلك تختلف النكتة فى كل مجتمع عن الآخر .. وهذه المداعبة التى تطلقها الفتاة ، تعبر عن جذور قديمة فى المجتمع الافريقى ..

وبقيت برهة أنظر فى عينيها ، أحاول أن أفهم سؤالها ..

وعادت تقول :

— انها رخيصة .. أربعة فرنكات فقط !

وابتسمت ، وقلت لها .. أبادلها المداعبة :

— انى مستعد أن أشتريك أنت ..

وضحكت ضحكة كبيرة .. ورنين ضحكتها يسقط فوق الصخور فيتردد له صدى كمرح الملائكة ..

وقالت :

— لا .. أنا غالية !!

قلت :

— لماذا .. لماذا أنت غالية ؟

قالت :

— لأنى كبيرة .. وجميلة .. انظر ..

ورفعت الى وجه صديقتها .. أو لعلها أختها فعلا .. رفعته بالقوة وهى تضحك ، والأخرى تقاومها وتضحك أيضا .. ثم قالت :

— انظر جيدا .. ألست أجمل منها .. بكثير .. أليس كذلك ؟!

وأحسست بارتباك يصهر وجهي .. فلست متعودا على مغازلة البنات .. وعمري لم يعد يليق بهذا الموقف .. عمر الثانية والخمسين ..

قلت وأنا أبتلع ارتباكي :

— انى مستعد أن أدفع أى ثمن لأشتريك .

وعادت تضحك ضحكتها الكبيرة ، وقالت :

— لا أظن أن كل ما معك ، يكفيني ..

ثم شدت أختها ، وهمت أن تجرى بها من أمامي .. فصحت :

— لحظة من فضلك ..

والتفتت الى فى تعجب .. وابتسامتها تمرح فوق أسنانها البيض .. وقالت فى اختصار :

— ماذا تريد ؟

قلت ، وأنا أنظر بكل عيني فى وجهها :

— هل رأيت سامى اليوم ؟!

وفجأة ..

اختفت ابتسامتها ..

اختفت أسنانها البيض ..

وتجهم وجهها ..

وتهدج نهدها العارى ، كأنه يهم بالبكاء ..

ونظرت الى طويلا .. فى نظرتها سخط تصبه على .. وكراهية تحاول أن تخنقنى بها .

ثم تركت يد أختها .. ودون أن تتكلم .. جرت من أمامى .. ولهدها يجرى أمامها .. وأختها تجرى وراءها .

ووقفت أتتبعهما ، وأنا أحاول أن أكتشف شيئا جديدا ، من خلال هذا التجهم الذى أصابها بمجرد سماعها لاسم سامى ..

لقد كان سؤالى مقصودا .. كنت أقصد مفاجأتها به لأرى انعكاس المفاجأة عليها .. ولأكتشف من هذا الانعكاس حقيقة نوع العلاقة التى تربطهما .. علاقة بسيطة عابرة .. مجرد علاقة رجل بامرأة اختلف لونهما .. أم علاقة مركبة .. علاقة أعمق من ذلك .. وأكثر جدية ..

لا شك أنها علاقة عميقة .

ولكن ..

ما مدى عمقها ..

وما سر عمقها ..

لست أدرى ..

وجلست فوق الصخور .. أستريح .. وأفكر ... ووجه الفتاة السمراء معلق فى خيالى .. انها جميلة .. أجمل مما كنت أعتقد أو أتصور .. ان هذه الوجوه الافريقية ، أشبه بالليل ، لا تستطيع أن ترى ما فيه الا بعد أن تتعود عيناك على النظر فيه .. وعند ما تستطيع أن ترى فى الليل ، تكتشف ما فيه من جمال .. تكتشف أنه أجمل بكثير من الوجوه البيضاء .

والتفت الى حيث يقع « بلاج البيض » الذى تنتشر فيه الشماسي الملونة .. لا يزال بيني وبينه مسافة طويلة .. ونظرت في ساعتي .. الثانية عشرة .. ياه .. لقد سرت على قدمي أكثر من ثلاث ساعات .. ولن أستطيع أن ألحق بموعد سامي اذا عدت ماشيا ..

وقمت واقفا .. ووسعت خطواتي وأنا أقفز فوق الصخور ، عائدا الى كوبرى النيجر .. ووقفت عند مدخل الكوبرى .. أبحث عن سيارة ، أو عن عربة ، تحملني الى الفندق لألحق بموعد سامي .

ومرت سيارة كبيرة .. لورى .. يقودها سائق وطني .. فأشرت اليه ، ووقف .. وطلبت منه أن يوصلني الى الفندق .. نطقت اسم الفندق فقط ، ليفهم ما أعنيه .. وفهم وحرك أمامي أصبعيه .. وفهمت .. أنه يطلب فرنكين أجرا له ..

وركبت بجانبه ..

وطول الطريق وهو يردد كلمة باللغة الوطنية ، لا أفهمها .. ولكنه يرددها في سخط وفي قرف ..

ثم بدأ يردد بالفرنسية كلمة : مطر .. مطر .. مطر !

ويرفع يده ويخبط بها على عجلة القيادة ، ثم يعود يردد كلمة : مطر .. مطر .. مطر !

ولما وجدني لا أعلق بشيء على الكلمة التي يرددها ، التفت الى ، ينظر الى بعينين واسعتين ، بياضهما تجرى فيه عروق حمراء غامقة .. وقال كأنه يثور على :

— أتدرى ماذا يعنى المطـــر .. يعنى أنى لن أشـــتغل .. ستسد الأمطار جميع الطرق .. ويستغنى عنى صاحب السيارة .. وأجوع .. وأولادى يجوعون .. ان موسم الجوع بقى عليه أسبوعان ..

ولم أرد عليه ..

خفت أن أخطيء فى اختيار الرد ، فيثور أكثر ..

وعاد يخبط على عجلة القيادة بكفه ، وهو يردد : مطر .. مطر .. مطر ..

وأنا جالس بجانبه ، متشبث بمقعـــدى .. أكتم الخوف فى صدرى .. الخوف أن يحطم السيارة ، ويحطم نفسه ، ويحطمنى .. قبل موسم المطر .. موسم الجوع !

ونزلت من السيارة قريبا من الفندق ..

ووجدت سامى ينتظرنى على السلم الخارجى ونظر الى فى ريب عجيب ، وسألنى كأنه يحقق معى :

— أين كنت يا دكتور ؟

قلت :

— سرت حتى الكوبرى ..

قال وهو ينظر فى وجهى بإمعان :

— هل رأيت شيئا جديدا ؟

قلت وأنا أنظر فى وجهه حتى لا يكتشف كذبى :

— أبدا .. نفس ما رأيته أمس .. خفت أن أنحرف عن الطريق الذى أعرفه ، فأتوه !

وابتسم سامى فى راحة .. وقال :

— لنذهب الى البيت ..

قلت :

— ألا نستريح قليلا ؟

قال فى لهجة جادة :

— لا .. لا .. أخى سليم ينتظرنا !

قالها كأن أخاه سليم ،أعظم رجل فى العالم ، ولا يصح أن ندعه ينتظرنا ..

وهززت كتفى فى استسلام ..

وذهبت معه ..

***

وبيت سامى .. شقة فى عمارة صغيرة ، مكونة من دورين ، يرتفعان فوق دكان كبير ، يباع فيه كل شىء .. قطع غيار .. وأقمشة .. ودقيق .. ومواد البناء .. وحلوى .. و .. و .. وتصعد الى الشقة من سلم يقع خلف هذا الدكان الكبير ..

وكل العمارات فى باماكو بناها المهاجرون اللبنانيون والسوريون .. ولذلك فهم يسمون فى كل بلاد افريقيا ، بالمعمرين .. لأنهم يعمرون كل بلد ينزلون فيه .. ولكن يبدو أن المهاجرين كانوا يستمدون على أنفسهم فى الرسوم الهندسية التى يبنون عليها العمارات .. فكل العمارات .. خصوصا العمارات القديمة .. عجيبة فى هندستها .. لا تعرف كيف تدخل

فيها .. ولا كيف تخرج منها .. وقد قادنى سامى الى خلف الدكان الكبير .. وصعدنا .. ثم تفرع السلم الى سلمين .. ثم دخلت فى ممر .. وانحرف الممر دون أن أدرى سبب انحرافه .. ثم دخلت فى باب .. ووجدت نفسى فى مطبخ ، يقف فيه شاب وطنى عارى الصدر .. يرتدى بنطلونا قصيرا .. ثم خرجت من المطبخ لأجد نفسى فى صالة ..

والأخ سليم واقف يستقبلنى !

انه لدهشتى ، أصغر من سامى .. ان الطريقة التى كان سامى يتحدث بها عن أخيه أقنعتنى أنه أكبر منه .. أقنعتنى أن سليم هو رب العائلة .. ولكنه يبدو أصغر .. لا يمكن أن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ..

ورغم ذلك ، فهو يبدو كأنه رب العائلة ..

انه صارم التقاطيع ..

جاد النظرات .

لا يبتسم .. لا يبتسم اطلاقا ..

لقد استنتجت توا ، أن سليم هو الأخ الذى يحمل مسئولية ادارة تجارة الأسرة .. وأنه يحمل هذه المسئولية وهو يعلم أنه يحملها .. ويطالب أخاه بثمن حملها .. يطالب بالسيطرة .

وأجلسنى سليم على أريكة فى الصدر وجلس بجانبى . بينما جلس سامى على مقعد بعيد ، كأنه يتأدب أمام أخيه .. أخيه الأصغر !

وطاف الحــديث بيننا .. حديثا عاديا .. وسليم يكثر من الشكوى من قسوة العمل فى باماكو .. ويحسد بقية المهاجرين فى دكار .. وفى كوناكرى .. وفى بقية بلدان افريقيا .. وهو فى حديثه عن قسوة العمل يحاول دائما أن يبرز المجهود الكبير الذى يقوم به ..

وفتح باب جانبى ودخلت فتاة بيضاء ..

وأشار سليم اليها وهو جالس ، وقال فى لهجة أقرب الى الاحتقار :

— أختى سامية ..

وقمت واقفا أصافح سامية .. انها ضعيفة .. وجهها باهت ..بياضها ليس فيه لون الدم .. وخطوط كثيرة فوق جبينها ، وحول عينيها .. انها تبدو كأنها امرأة عجوز ، لولا بريق خافت من الشباب يبدو فى عينيها ..

وجلست سامية على مقعد بعيد آخر فى مواجهة سامى .. ونكست رأسها ، ووضعت يديها فى حجرها ..

وقلت وأنا أجلس بجانب سليم :

— سامى .. وسليم .. وســامية .. لابد أن الوالد كان يتفاءل بحرف السين ! !

وقال سليم وهو يقلب شفتيه فى قرف ، كأنه يسخط على ذكرى أبيه :

— لقد اعتمد الوالد على حرف السين ، لدرجة أنه مات مفلسا .. تركنا لا نجد ثمن الرغيف .

ورفع سامى رأســه ونظر الى أخيه وعينــاه تبرقان فى غضب .. ولمح سليم نظرته فواجهه بنظرة أقوى منها .. وما لبث ســامى أن أطفأ نظرته ، ونكس رأســه وهو يهــزه هزات بطيئة ، كأنه يزوم .. كأنه يمزق شيئا فى داخله ..

ولاحظت كل ذلك ، وسكت ..

ثم قلت لسليم وأنا أحاول أن أخفف من هذا الجو القاتم الذى يحيط بى :

— أعتقد أنك أصغر من سامى ..

وهز سليم كتفيه ساخرا ، وقال :

— نعم يادكتور .. أنا الأصغر .. أصغر من سامى وأصغر من سامية ..

ثم التفت الى سامى ، وقال :

— أليس كذلك يا سامى ..

وهز سامى رأسه فى صمت ..

وعاد سليم يقول لى ، وهو يشير الى أخيــه ، ثم يضرب بكفه على ساقه :

— حضرته أديب .. أديب كبير !

وسامى ساكت ..

وسامية رأسها منكس ، ويداها فى حجرها .

والحديث يدور بينى وبين سليم فقط ..

ثم صرخ سليم :

— لماذا لم ينته هذا الحيران من اعداد الطعام ..

ثم التفت الى قائلا :

— عن اذنك ..

وقام وخرج من الغرفة .. واستنتجت أنه ذهب الى المطبخ ليشرف على الحيوان الذى يعد الطعام ..

وبمجرد أن خرج سليم ، رفع سامى رأسه وقال لى فى غضب هامس :

— أبى لم يمت مفلسا .. أبى كان أشعر شعراء المهجر .. كانت مجلات لبنان تنشر قصائده .. بل انه كان يصدر فى لبنان مجلة أدبية .. كان رجلا عظيما .. ولكن أخى سليم يكرهه .. كان دائما يكرهه .. صدقنى .. أبى كان رجلا عظيما .. سأريك المجلات التى كانت تنشر صوره وقصائده .. مجلات لبنان !

ثم قام الى دولاب قديم فى ركن من الصالة ، وأخذ يحاول فتحه ..

وقامت سامية من مقعدها .. وتقدمت منى فى خطوات ليس لها صوت .. كأنها تسير على أطراف أصابعها .. وقالت فى صوت هامس كأنها تطلعنى على سر :

— هل زرت لبنان ..

فقلت وأنا أنظر فى وجهها لعلى أعرف سرها :

— نعم .. كثيرا ..

قالت وهى لا تزال تهمس :

— أنا زرت لبنان .. قضيت هناك ثلاثة شهور .. كانوا يقيمون هناك المآدب لأبى .. و .. و .. كنت فى العاشرة من عمرى ..

ولم تقف سامية عندما قالت انها كانت فى العاشرة من عمرها عندما زارت لبنان .. ولم تتنهد .. قالتها كأنها تتحدث عن شيء حدث بالأمس القريب .. كأنها تستطيع فعلا أن تتذكر ما رأته وهى فى العاشرة من عمرها .. أو كأنها لا تزال تعيش فى عمر العاشرة ..

وقطعت سامية حديثها عن لبنان فجأة ، وقالت هامسة :

— هل تعرف الأستاذ عبد الوهاب ..

وأجبتها هامسا حتى لا أشعرها بأنها تهمس :

— انه صديقى ..

قالت :

— لقد كان صديق أبى .. هل تعرف ليلى مراد !

قلت :

— نعم ..

قالت هامسة :

— انها تغنى ..

ولم تزد .. قالتها كأنها تبلغنى خبرا خطيرا ، وهو أن ليلى مراد تغنى !

وفجأة ارتفع صوت صفعات من المطبخ .. صفعات عنيفة .. وصوت سليم يصرخ بكلام لا أستطيع أن أتبينه ، أو أفهمه ..

وذعرت سامية .. وابتعدت عنى مسرعا بخطواتها الهامسة .. وجلست فى مقعدها .. ونكست رأسها .. ووضعت يديها فى حجرها ..

وانتصب سامي واقفا بجانب الدولاب الذي يحاول فتحه .. ونظراته يشع منها بريق عجيب .. وهذه الخلجة فوق شفته العليا ترتعش.. وأنفاسه تتهدج .. وقال كأنه يحادث نفسه :

— انه يضربه .. يضربه مرة ثانية .. انه يضربه ..

وظل واقفا مكانه برهة وهو يضغط على حافة الدولاب بقبضته .. وجسده يرتعش .. كأنه يقاوم .. يقاوم شيئا عنيفا قاسيا ..

وعاد سليم الينا وهو يقول :

— آسف يادكتور .. هذا الحيوان لا يستطيع أن يفهم .. انه حيوان .. تصور .. يجب أن أطهو الطعام بنفسي اذا أردت أن آكل شيئا نظيفا ..

ثم التفت الى أخيه سامي .. ولما رآه واقفا فى حالته هذه .. قال له فى لهجة آمرة ، كأنه تسود عليها :

— اجلس .. لا تقف هكذا..

وعاد سامي صاغرا الى مقعده ..

وجلس سليم بجانبي ، وقال بلا مقدمات :

— لقد أخبرني سامي أنك دكتور نفساني .. هل معنى ذلك أنك تشفى الجنون ..

قلت وأنا أحاول أن أبدو بسيطا ، كأنى لم أر شيئا فى هذا البيت يثير انتباهى :

— ليس كل أنواع الجنون ..

قال وهو ينظر الى فى غباء :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— ان الدكتور النفسانى هو الوحيد بين دكاترة الأمراض ، الذى لا يشفى المريض .. ولكنه فقط يساعد المريض على الشفاء ..

وعاد ينظر الى فى غباء ..

ثم نظر الى أخته سامية .. ثم التفت الى قائلا .. بلا مقدمات أيضا .. والأمارات الحادة تملأ وجهه :

— هل تحب أن تسمع أم كلثوم ؟ !

ورفعت سامية رأسها بغتة ، وفى عينيها خوف غريب .. وتوسل غريب أيضا ..

وقال سامى فى حدة :

— لا .. لا .. لا أحد يريد أن يسمع أم كلثوم ..

ونظر اليه سليم نظرة صارمة ، وقال له فى لهجته الآمرة :

— اسكت ..

وسكت سامى وهو يضغط احدى يديه بالأخرى فى حركة عصبية ..

وهمت سامية بالقيام .. فصرخ فيها سليم :

— اجلسى مكانك ..

ورفعت اليه يديها الباهتتين ، وقالت فى توسل :

— أرجوك .. أرجوك يا أخى .. أرجوك يا سليم !

وعاد يصرخ فيها :

— اسكتى ..

ثم قام وأخرج من جيبه حزمة مفاتيح وفتح الدولاب .. نفس الدولاب الذى كان يحاول سامى أن يفتحه .. وأخرج منه اسطوانة .. وضعها فى جرامفون قديم ..

وسامية ترتعش ..

وانطلق صوت أم كلثوم تغنى : غلبت أصالح فى روحى ..

وتجمدت سامية فى مكانها ..

رفعت رأسها .. وتاهت نظراتها فى الفضاء ..

وسامى لا يزال يضغط احدى كفيه بالأخرى فى حركة عصبية ..

وسليم ينظر الى أخته فى قسوة ..

ويدأت الدموع تنبثق من عينى سامية ..

وأنا أنظر اليها ، كأنى أنظر من خلال ميكرسكوب ..

وانهمرت دموع سامية ..

صوت أم كلثوم ينساب .. كأنه ينساب دموعا على خديها .. ثم بدأت تنشج بالبكاء .. ثم ازداد نشيجها .. وبدأت ترتعش .. ثم صرخت ..

صرخة حادة .. كأنها لفظت قلبها مع صرختها ..

وقامت تجرى الى داخل البيت ، وهى تتعثر فى قطع الأثاث ..

وأسكت سليم الجرامفون ..

ونظر الى دون أن يتكلم ..

ووضعت عينى فى عينه ، وقلت فى بساطة كأن كل ماشاهدته لا يثير اهتمامى :

— ما لها الآنسة سامية ؟

ونظر الى فى دهشة ، كأنه صدم بيرودى . وقال :

— هذا ما أريدك أن تعرفه .. أنت دكتور !

وضحكت ، ضحكة صغيرة ، وقلت :

— دكتور فى أجازة .. أرجو لو كانت الآنسة سامية تعانى أى حالة ، ألا تعتمد على فى علاجها ..

ونظر الى فى حدة ، وقال وهو لا يستطيع أن يتخلص من لهجة السيطرة :

— سنتكلم فيما بعد .. والآن .. نتناول الغداء .

ثم صرخ ينادى على الطباخ :

— ممدو ..

وجاء « ممدو » يحمل أطباق الطعام ووضعها على المائدة الخشبية العتيقة التى تتوسط الصالة ..

كانت ألوان الطعام كلها لبنانية .. تبولة .. وكبيبة .. وسلاطة

وقال سليم ونحن نجلس على المائدة :

— لقد علمت هذا الحيوان كيف يطهو الأطباق اللبنانية .. ولكن لا فائدة .. انه حيوان ..

ثم مد ملعقته ، وأكل من طبق التبولة .. ورفع رأسه ، وانهال على « ممدو » بالشتائم .. شتائم باللغة الفرنسية ؟!

ودق سامى بقبضـة يده على المائدة كأنه لم يعد يطيق ، وصرخ فى وجه أخيه :
— كفاية .. لا تشتمه .. انك أنت الذى تصر على أن تجعل منه حيوانا ..
ولم يتحرك سليم لثورة أخيه ..
وقال وهو يمد ملعقته مرة ثانية فى طبق التبولة :
— اسكت ..
وسكت سامى فعلا ..
وأكلت بسرعة .. كنت قد تعبت من هذا الجو القابض .. تعبت حتى من أنى طبيب نفسانى ..
واستأذنت فى الانصراف ..
وقال لى سليم وهو يودعنى :
— متى أراك .. انى فى حاجة اليك ..
قلت فى برود :
— اتصل بى فى الفندق لتحدد موعدا ..
وتركته بسرعة ، كأنى أهرب من ضيق يجثم على صدرى ..
وسار معى سامى ليصحبنى حتى الفندق ..
لم يتكلم .. كان ينظر الى بوز حذائه ولا يتكلم ..
وأنا أنظر اليه بين الحين والحين .. وأحس بشـفقة كبيرة عليه .. ولكن لا أحاول أن أجره الى الكلام ..
وعندما وصلنا الى الفندق ، قال فى صوت ضعيف :
— أنا آسف .. لعلنا أتعبناك بهذه الدعوة .

قلت :

— أبدا .. لقد قضيت وقتا سعيدا .. ولكنى متعب ..

قال فى تردد :

— هل أراك فى المساء .. ان باماكو تبدو دائما جميلة فى المساء ..

قلت وأنا أبتسم له :

— اتفقنا .. مر على الساعة الثامنة ..

وتركته وصعدت الى غرفتى ..

كانت الساعة الخامسة .. وكنت متعبا فعلا .. حاولت أن أسجل ملاحظاتى فى مذكراتى فلم أستطع ..

نمت ..

***

وصحوت فى الساعة السابعة .. وارتديت ثيابى .. البنطلون والقميص أيضا .. ونزلت الى بهو الفندق أتناول الشاى ، وأنتظر سامى ..

ومرت الساعة الثامنة ، ولم يحضر سامى .. التاسعة ، ولم يحضر ..

العاشرة ، ولم يحضر ..

وابتسمت ..

ابتسمت لأنى فعلا كنت أريد أن أرى سامى .. وكنت أنتظره بلهفة .. لهفتى على أن أكتشف سرا من أسرار افريقيا ..

وهذه هى المرة الثانية التى يخلف فيها موعده معى .. وتخيلته كأسد يراوغنى قبل أن أصطاده .. ولهذا ابتسمت !

وصعدت الى غرفتى ، وقد قررت أن أقرأ كتابا ..

وما كدت أقرأ بضع صفحات ، حتى سمعت طرقات عنيفة على بابى ..

لا بد انه سامى ..

ونظرت فى ساعتى .. الحادية عشرة والنصف ..

وقمت وفتحت الباب ..

انه ليس سامى ..

انه سليم ..

وصرخ سليم فى وجهى :

— أخى يا دكتور .. سامى أخى .. انه مجنون .. مجنون .. أرجوك يا دكتور .. أسعفنا ..

قلت :

— ماذا جرى له ..

قال :

— لن أستطيع أن أصف لك .. سترى بعينيك .. أرجوك .. تعال معى !

قلت :

— الى أين ؟

قال :

— هناك .. فى الغابة القريبة .. انه مجنون .. مجنون ..
وارتديت ثيابى بسرعة ..
وهممت أن أخرج مع سليم ، ثم عدت سريعاً ، والتقطت
حقيبتى الطبية الصغيرة ..
وخرجت .. وسليم يصيح بجانبى :
— انه مجنون .. مجنون ..

— ٣ —

وقفز سليم الى مقعد القيادة فى سيارة « بيجو » فرنسية ، عتيقة .. وهو يصيح :

— أسرع يا دكتور .. أرجوك .. أسرع .. الحالة خطيرة !

ولحقت به ، وجلست بجانبه .. وقاد السيارة بسرعة مجنونة ، حتى اضطررت أن أتشبث بحافة الباب بكلتا يدى .. ولم أحاول أن أنصحه بأن يهدىء من السرعة .. كنت أعلم أنه فى حالة لا يجدى معها النصح ..

واستسلمت وأنا أحاول أن أجمع فى ذهنى خطوط هـذه العائلة الغريبة التى التقيت بها مصادفة فى مدينة باماكو .. فى قلب افريقيا ..

سامى .. الأخ الكبير الذى يحنى رأسه أمام أخيه الأصغر ، ولايستطيع أن يرفع صوته فى مواجهته ، ولا أن يواجهه بعينيه.. والذى يهتز وتنتابه حالات متناقضة غريبة كلما جاء ذكر الزنوج الوطنيين ..

وسامية الأخت الكبيرة ، التى لا تزال تعيش فى ذكرى

زيارتها للبنان عندما كانت فى العاشرة من العمر .. والتى تبكى ، ثم تصرخ فى جنون ، عندما تسمع صوت أم كلثوم ..

وسليم .. الأخ الأصغر .. الجاد الصارم ، الذى يبدو قاسيا ، مكروها .. والذى لا يخضع لارادة أخيه الأكبر منه ، وأخته الأكبر منه أيضا .. ويضرب خادمه الزنجى ..

والأب الذى مات .. ولا أدرى متى مات .. والذى يقول عنه سليم انه كان فاشلا .. ويقول عنه سامى انه كان رجلا عظيما ، وأديبا كبيرا ، تنشر المجلات اللبنانية صوره ..

ولم أستطع أن أربط هذه الخطوط بعضها ببعض ..

ولم أحاول أن أستنتج منها شيئا ..

كنت فى انتظار أن تساعدنى الأحداث على اكتشاف سر هذه العائلة .. السر الذى كان يبدو فى خيالى كأحد أسرار أفريقيا ، التى لم يكتشفها أحد قبلى ..

وسليم يقود السيارة بالسرعة المجنونة ..

وأنا لا أزال متشبثا بحافة باب السيارة .. بكلتا يدى ..

وانتهينا من الشارع الطويل الذى يشق الحى الافرنجى ، بمدينة باماكو .. وبدأنا نعبر الكوبرى الطويل المقام على نهر النيجر .. ثم انتهينا من الكوبرى .. وانتهى الطريق المرصوف ، وبدأت السيارة تهتز بعنف فوق طريق مترب مليىء بالمطبات ، تبدو فى ضوء فانوس السيارة كأنها ثقوب غربال ضخم ..

واختفت كل مظاهر العمران ..

اننا فى قلب الغابة ..



الأشجار على الجانبين ، تبدو فى الليل كأنها أشباح سوداء .. تتحرك مع الهواء ، فيخيل اليك أنهـا تجرى نحوك .. والهواء الرطب يزداد ثقـلا .. يكاد يجثم على صـدرى .. وأصوات الطيور تنطلق من فوق حواف الشجر ، كأنها أجراس صغيرة تملأ السماء ، وينطلق من بينها بين الحين والحين ، صوت غليظ منفر .. كأنه الشخير المزعج .. لا أدرى من أين ينطلق ، ولا من يطلقه ..

وأحسست بالرهبة .. وتصورت أننا قد نلتقى بأسد .. أو بقطيع من الفيلة .. أو فهـد يقفز فوق رءوسنا .. والتفت الى المقعد الخلفى من السيارة ، أريد أن أطمئن الى أن سليم قد حمل معه بندقية .. ولم أجد فى السيارة بندقية ، أو سلاحا ..

ونسيت وسط هـذه الرهبة المثيرة ، والخوف اللذيذ .. قصة سامى .. بل نسيت سليم أيضا ..

ولكنى فجأة ، عدت أسأل سـليم ، كأنى أحاول أن أذكر نفسى بمهمتى :

— ماذا يفعل سامى فى هذه الغابة ..

وأجاب سليم فى صرامة :

— ستري بنفسك .. انه مجنون .. مجنون ..

ثم سكت ، وعاد يحلق بكل عينيه ، فى الشعاع القصير المنطلق من مصباح السيارة ..

وعادت رهبة الغابة تطوينى ..

وبعد برهة انطلقت أسأله مرة ثانية كأنى أحاول أن أبدد رهبتى

— أليس فى هذه الغابة ، وحوش ..

وأجاب .. فى صرامة أيضا :

— فيها نوع من الانسان ، ألعن من الوحوش ..

وسكت . وعاد يبحلق فى الشعاع القصير المنطلق من مصباح السيارة .. والسيارة تقفز بنا فوق المطبات ، كأننا نركب ظهر حيوان متوحش !

وبعد ثلاثة أرباع ساعة ، بدأت أسمع صوت طبول ضخمة تأتى من بعيد .. طبول مختلفة الأنغام .. دقاتها سريعة منغمة . قوية ..

وقلت فى دهشة :

— ما هذا ؟

وقال سليم وهو يلوى شفتيه فى قرف مر :

— حفلة رقص ..

وكلما تقدمت بنا السـيارة ازدادت قرعات الطبول قوة وسرعة .. حتى خيل الى أن كل أشجار الغابة ليست سوى طبول تضرب عليها أيد مجنونة عنيفة فى جنونها ..

ولم أعد أسمع صوت موتور السيارة ..

ولم أعد أسمع صوت العصافير ..

ليس فى أذنى سوى هــذه الدقات العنيفــة ، تكاد تحطم رأسى ..

وانحرف سليم بالسيارة داخل الغابة .. ثم أوقفها بين الأشجار ، وأطفأ نورها .. والتقط من جانبه مصباحا صغيرا ببطارية ، ونزل من السيارة قائلا ، وأنا لا أكاد أتبين صوته :

– تعال يا دكتور ..

ثم أمسك بيدى .. وأطلق نور مصباحه .. وسار وهو محنى الظهر ، كأنه يختبىء بين أغصان الأشجار .. وأحنيت قامتى مثله ، وسرت وراءه ، وهو يشدنى من يدى .

وصوت الطبول العنيفة يخرق أذنى .. ويضرب على قلبى .

وضوء أمامنا بدأ يبدو من بين الأغصان .. ضوء خافت .

ومع صوت الطبول ، تبينت صوت تصفيق سريع منغم .

ثم بدأت أتبين أصوات كلام لا أفهمه .. عشرات من الناس يتكلمون ..

ومن وسط الكلام ترتفع صيحات .. صيحات مرحة !

واقتربنا ..

وبدأت أتبين وسط الظلام ، حواف أكواخ تبدو من خلال الأشجار .

ثم اقتربنا أكثر ..

وجلس سليم على احدى ركبتيه مختبئا وراء شجرة صغيرة ، وأنا مختبىء بجانبه ..

وعيناى متسعتان على آخرهما .. وأنفاسى مبهورة .

انها قرية صغيرة .. لا يزيد عدد أكواخها عن عشرين .. أكواخ من الطين المغطى بفروع الشجر .. وأمامها ساحة واسعة

جرداء .. نصبت فى وسطها ، طبلتان كبيرتان .. يقف أمامهما رجل عملاق يضرب عليهما بعصاتين غليظتين .. وعلى الأرض فانوس يوقد بالغاز ، كالفانوس الذى يستعمل فى اضاءة خيمات الكشافة .. وأهالى القرية ملتفون فى حلقة .. صدورهم عارية .. ونهود النساء تتدلى عارية كأكواز العنبر فوق أغصان دقيقة .. والجميع يصفقون صفقات سريعة مع دقات الطبول .. وفى وسط الحلقة فريق منهم يرقص .. رقصات مجنونة .. خطواتها أسرع من المارنجى والسامبا .. الأقدام سريعة .. سريعة .. حتى لا تكاد تبدو من سرعتها .. وكل راقص ، أمامه راقصة .

وبين الراقصين .. سامى !!

عارى الصدر ..

يبدو جسده الأبيض وسط كل هذا السواد ، كأنه شهاب يشق الليل .. وهو يرقص ..

انه أبرع وأسرع من جميع الراقصين ..

وأمامه فتاة .. ترقص معه ..

نفس الفتاة التى رأيتها فى قهوة فانى .. والتى قابلتها على شاطىء النيجر ..

وركزت عينى المبهورتين من خلف الشجرة التى أختبىء وراءها ، فوق وجه سامى ..

ان العرق يتساقط بغزارة فوق جسده ..

وعيناه متسعتان اتساعا غريبا ..

ونظراته فيها هذا الطابع الذى أعرفه جيدا .. طابع الجنون .
وهو يرقص ..
بعنف ..
وينزل على الأرض بظهره ، وقدماه ثابتتان .. حتى يلامس ظهره الأرض .. ويرتعش ، ارتعاشات غريبة .. ويمرغ رأسه فى التراب .. والفتاة تميل عليه ، وهى تهز نهديها العاريين فى وجهه ، هزات عنيفة سريعة ، كأنها ترش بهما وجهه ..
ثم فجأة ينتفض سامى واقفا على قدميه .. وتنتفض الفتاة معه .. ويرقصان .. والعرق يسيح من فوقهما .. كأنهما يلعبان فى بحر من العرق .. والنظرات المجنونة فى عينيه .
ونور قوى ينطلق من بياض عينيها فيضىء وجهها كله .. وابتسامة غريبة ترقص فوق أسنانها البيض ..
والتفت الى سليم المختبىء معى خلف الشجرة .. ان وجهه متقلص كأنه أصبح قطعة من المطاط المنكمش .. وقبل أن أسأله عن شىء .. قام واقفا ، وهو يقول فى صرامة :
— تعال معى ..
ثم دخل الى الساحة الجرداء .. ساحة الرقص ..
وأنا وراءه .. أرتعد !
ورأى بعض الأهالى سليم ، فكفوا عن التصفيق ..
ورآه بعض الراقصين ، فكفوا عن الرقص ..
والتفت اليه قارع الطبول ، فكف مرة واحدة عن قرع الطبل ..

وتوقف الرقص فجأة ..
توقف كل شيء ..
ساد صمت رهيب مخيف ..
حتى طيور الغابة ، ليس لها صوت ..
وعيناى مركزتان فوق سامى ..
والتفت سامى حوله فى دهشة ، كأنه يتساءل عن سر توقف كل شيء ..
سر توقف الحياة ..
وعند ما سقطت عيناه على أخيه سليم ، انطلقت منهما نظرة مخيفة .. نظرة مجنونة .. خيل الى أن عينيه انطلقتا كرصاصتين مصوبتين الى قلب أخيه ..
وبدأت أنفاسه تتهدج ..
وتزداد تهدجا ..
وخلجة من وجهه فوق شفته العليا .. ترتعش فى عنف .. تكاد تنفصل عن وجهه !
والعرق يزداد تصببا من جسده وتقف حباته — حبات العرق — فوق جبينه كمسامير مزروعة فى رأسه .
ثم رفع ذراعا مرتعشة ، وأشار بأصبعه الى صدر أخيه ..
وبدأ يتكلم ..
تكلم أولا بصوت خفيض .. ثم بدأ صوته يرتفع .. ويرتفع حتى أصبح صراخا .. وكان يتكلم بلغة غريبة ..
لغة لا أفهمها ولا أعرفها ..

وأخوه سليم واقف أمامه لا يهتز .. وعيناه تقابلان فى ثبات العينين المجنونتين ..

وسامى لا يزال يصرخ ..

وهمست لسليم بصوت يحشرجه انفعالى مما أرى :

— بأى لغة يتكلم ؟

قال وهو لا يرفع عينيه عن أخيه المجنون :

— لغة « الولف » .. لغة الزنوج !!

قلت :

— ماذا يقول ؟

قال :

— انه يقول اننا الشياطين البيض ، وقد جئنا لنخطف الزنوج ..

قلت :

— يبدو من عينيه أنه لا يعرفك ، ولا يعرفنى ..

قال :

— لا .. انه لا يعرفنى وهو فى هذه الحالة ..

قلت :

— كلمه بالعربية ..

قال :

— لن يفهمنى ..

قلت :

— حاول ..

وقال سليم لأخيه ، وهو لا يزال مركزا عينيه فوق وجهه :

— أخي سامي .. أنا أخوك .. جئت لأصحبك الى البيت .

ولم يبد على سامي أنه فهمه .. واشتد صراخه .. وأخذ يتلفت الى الأهالي ، وهو يصرخ فيهم كأنه يحضهم على شيء ..

وقلت لسليم :

— ماذا يقول الآن ؟

قال :

— انه يطلب منهم أن يقتلونا .

قلت في رعب :

— هل يقتلوننا ؟

قال في ثبات :

— لا .. لا تخف !!

والأهالي واقفون في صمت .. ينظرون الى سامي نظرات خيل الى أن فيها كثيرا من الحنان والحب .. ووجوههم حزينة ، كأنهم على وشك البكاء .. ثم يلتفتون الى سـليم ، كأنهم في انتظار ما يفعله ، وكأنهم يتوسلون اليه .. يتوسلونا اليه لماذا .. لا أدري .. ولكنه مجرد احساس ألم بي وأنا أرقب عيونهم .

والفتاة التي كانت ترقص مع سامي واقفة بجانبه .. هي وحدها التي ينطلق من عينيها نظرات غاضـبة قاسـية .. تكاد تكون نظرات مجنونة .. توجهها الى سليم ..

وسامي لا يزال يصرخ ، ويشير بيديه اشارات عنيفة ..

ثم لم يعد فى صراخه كلام .. أصبح مجرد صراخ .. صراخ حاد .. كصراخ حيوان مجروح وقع فى فخ .. ويضرب الهواء بيديه .. ثم يشد شعر رأسه .. ويصرخ ..

ثم فجأة التقط سامى العصا الغليظة التى كان يستعملها قارع الطبل .. ورفعها فى الهواء .. وهجم على أخيه سليم .. بكل قوته .. بكل ثقله .. كأنه ثور هائج ..

ويبدو أن سليم كان ينتظر هذه المفاجأة .. فقد لمحته يتخذ فى وقفته وضعا معينا .. ويركز قدميه فى الأرض .. ثم ما كاد أخوه سامى يصل اليه حتى أمسك بذراعه التى تحمل العصا ، ولواها بعنف ، فسقط سامى على الأرض ، وهو يصرخ ، ويضرب الهواء بساقيه .. وسقط فوقه سليم ، ورفع كفه ليصفعه فصرخت فيه :

— لا تفعل .. لا تضربه !

ثم ركعت بجانبهما على الأرض .. وفتحت حقيبتى الطبية . وأنا أقول لسليم :

— ثبت ذراعه بقوة !

ثم بدأت أعد بسرعة حقنة مخدرة ..

والأهالى من حولنا يهمهمون فى صخب وسخط .

وما كدت أهم بغرز الابرة فى ذراع سامى الذى لا يزال يصرخ حتى أحسست بلكمات عنيفة فوق ظهرى ..

والتفت ..

انها نفس الفتاة ..

وتركتها تضربنى فوق ظهرى ، وحقنت سليم ..
ومرت لحظات ..
وسامى يخور ، ويرفس بقدميه .. وسليم فوقه يشل حركته
والفتاة لا تزال تضربنى فوق ظهرى .. وتصرخ بكلام لا أفهمه
كلام بلغة الولف ..
وسرى المخدر ..
وهدأ خوار سامى ..
ثم ..
نام ..
وقمت واقفا .. ونظرت الى الفتاة .. وواجهتنى بنظرة أخرى
كلها تحد .. ثم بصقت فى وجهى ، وهى تصيح بلغتها الفرنسية
الغريبة التى يخيل اليك وأنت تسمعها أن انسانا آخر يجلس فى
حلقها .. انسان أبيض :
— خنازير .. وحوش !! .
ثم ..
ثم أخفت وجهها بيديها .. وأخذت تبكى بحرقة .. وحرارة
.. ثم سـقطت على الأرض .. تحت أقدامى .. وتجمع حولها
بعض زميلاتها ..
ونادى سليم بعض أفراد القبيلة ، عاونوه على حمل سامى ،
وساروا به الى السيارة ..
ومسحت الرذاذ الذى أصاب وجهى من بصقة الفتـاة ،
وسرت وراءهم فى موكب حزين !
***

وقلت لسـليم ، ونحن عائدون ، وسامى ملقى فى المقعد الخلفى من السيارة :

— هل تحدث له هذه الحالة كثيرا ..

قال ولهجته اللبنانية تملأ شدقيه :

— كثيرا يا دكتور .. مرتين فى الشهر .. وأحيانا ثلاثا ..

ثم التفت الى ، وقال بلهفة :

— هل تستطيع أن تشفيه يا دكتور ..

قلت وأنا تائه فى تشخيص حالة سامى :

— لا أدرى .. لا أستطيع أن أؤكد ..

قال فى توسل لم أعهده منه :

— أرجو يا دكتور .. حالته معروفة فى كل البلد .. وكل الجاليات هنا تقاطعنا بسببه .. انهم يحتقروننا .. الفرنسيون يحتقرون عائلتنا .. والمهاجرون العرب أيضا يحتقروننا وأنا لا أستطيع أن أعمل .. تجارتى تكاد تتوقف ..

قلت كأنى لم أسمع كلامه :

— كيف عرفت أنه فى هذه القرية ؟

قال :

— انه يلجأ دائما الى هذه القرية عند ما يختفى من البيت .. وأحد أفراد القبيلة يعمل عندى فى الدكان ، ويبلغنى كلما لجأ اليهم سامى ..

قلت :

— دائما هذه القرية ؟

قال :

— دائماً يا دكتور ..

قلت :

— منذ متى ؟

قال :

— منذ عامين .. ربما قبل ذلك .. ولكنى لم أعلم الا منذ عامين ..

ووصلنا الى البيت .. وتعاونت مع سليم على حمل سامى ، ووضعه فى فراشه ..

وكنت أعلم أن مفعول المخدر ينتهى بعد ساعة ونصف .. وقد قطعنا طريق العــودة فى ساعة .. بقى نصف ساعة ويفيق سامى ..

وقررت أن أنتظر حتى يفيق ..

كنت أريده أن يرانى بمجرد أن يفتح عينيه حتى أشعره بأنى علمت بحالته ..

ومرت الدقائق ..

وأنا وسليم صامتان .. لا أريد أن أسأله عن شىء .. وهو يخشى أن يحدثنى حتى لا يضايقنى ..

وبدأ سامى يفيق ..

بدأ أولا يتكلم كلمات مقطعة بلغة الولف ..

ثم بدأ يتكلم باللغة العربية .. وكان أول ما قاله .. وهو يهز رأسه على الوسادة ، هزات عنيفة ..

— سليم .. أخى سليم .. لا تتركنى يا أخى ..

ونظرت الى سليم ..

ورأيت دموعا صامتة تجرى فوق خديه ..

وتعجبت ..

لم أكن اعتقد ان سليم ، رقيق الى هذا الحد .

ثم ..

فتح سامى عينيه ..

وكان أول شيء رآه .. وجهى ..

وارتجفت جفونه فوق عينيه .. ثم عاد ينظر الى وجهى :

وقمت من جانبه ، وأنا أقول له :

— استرح .. يجب أن تستريح !

ثم تركته ، وحملت حقيبتى ، وانصرفت ..

وهو لا يتكلم ..

ولم أكن أريد فى هذه الساعة أن أبدأ علاجه .. كنت أريد أن أترك له الفرصــة ليقرر بنفسه ، اذا كان يريدنى أن أعالجه أم لا .. ان العلاج النفسى يعتمد أولا على رغبة المريض الحرة فى أن يعالجه الطبيب .. والا فشل كل علاج .

وسار معى سليم ليصحبنى بسيارته حتى الفندق .. وسألته خلال الطريق :

— أين الآنسة سامية .. لم أرها ؟

قال وهو يتنهد كأنه يتحدث عن مصيبة أخرى :

— نائمة ..

وتركته عند باب الفندق ..

ودخلت حجرتى .. وجلست أدون فى مذكراتى الطبيه حالة سامى ، وكل ما شاهدته ، ثم كتبت كلمتين :

« ازدواج الشخصية » !

ونمت وأنا أتمنى أن يأتى سامى لزيارتى فى الصباح ..

— ٤ —

صحوت من نومى مبكرا .. قبل الموعد الذى تعودت أن أصحو فيه ..

والواقع أنى نمت نوما قلقا ، أقلقتنى خلاله محاولة دراسة حالة سامى .. ولم تكن هذه الحالة غريبة على .. حالة ازدواج الشخصية .. فقد سبق أن مرت على حالات كثيرة لازدواج الشخصية ونجحت فى علاجها . ولكن الظروف المحيطة بسامى ، والتى لابد أن لهـا أثرا كبيرا فى ازدواج شخصيته .. ظروف افريقيا .. كانت جديدة على .. غريبة .. مثيرة .. فلم ألتق من قبل بحالة تزدوج فيها شخصية زنجى ، وشخصية رجل أبيض

ترى ما سر هذا الازدواج ؟!

ان ازدواج الشخصية يعنى معركة دائمة بين العقل الواعى ، والعقل الباطن .. وفى كل منهما تعيش شخصية .. شخصية فى العقل الواعى .. وشخصية فى العقل الباطن .. وينتصر العقل الواعى حينا فيفرض شخصيته على تصرفات الانسان .. وينتصر العقل الباطن حينا آخر ، فيفرض شخصيته بدوره .. وفى كلتا الحالتين تستمر المعركة ..



فما هو سر المعركة فى نفس سامى ؟

وماذا يثيرها ؟

وقمت من فراشى ، وأنا شارد وراء هذه الخواطر ، وارتديت ثيابى ، وجلست فى انتظار سامى ..

كنت متأكدا أنه سيأتى الى بعد أن عرف أنى علمت بحالته .

وكنت أريده عند ما يأتى أن يجدنى فى غرفتى لا فى بهو الفندق ، حتى أبدأ فى تحليله مباشرة .. فطلبت فطورى داخل الغرفة .. ثم جلست أنتظر .. مرت الساعة السادسة والنصف صباحا ، وهى الساعة التى تعود سامى أن يزورنى فيها .. ولم

يأت .. ومرت الساعة السابعة ولم يأت .. والثامنة .. والتاسعة.. وأنا جالس فى غـرفتى كطبيب فاشل ينتظر أن يمن عليه أحـد المرضى بزيارته ..

وفى الساعة العاشرة والنصف سمعت طرقات على بابى .. طرقات خفيفة ، مترددة ، ليست كالطرقات العنيفـة التى تعودتها من سامى ..

ورغم ذلك انتفضت واقفا ..

ربما كان هو سامى ، ولكن طرقاته خفت وهو يطرق بابى كمريض لا كصديق ..

وفتحت الباب ..

لا .. ليس سامى ..

انها أخته سامية ..

انها حالة أخرى ..

وبسرعة انتقـل كل عقـلى من حالة سـامى ، الى حالة سامية .. الفتاة الكبيرة التى جاوزت الخامسـة والعشرين من عمرها .. والتى تبدو باهتة فى لون المرض .. وتعيش فى ذكرى زيارتها للبنان عندما كانت فى العـاشرة من عمرها .. وتسألنى عن الأستاذ محمـد عبد الوهاب والسيدة ليلى مراد .. وتبكى وتصرخ عندما تسمع صوت أم كلثوم ..

ووقفت سـامية على الباب لا تريد الدخول .. وتنظر الى فى تردد يبدو من خلاله شيء كالخوف ..

وابتسمت لها ابتسامة كبيرة ، وقلت فى بساطة :

— أهلا سامية .. اتفضلى ..

وعادت تنظر الى هذه النظرات المترددة التى يبدو فيهـا الخوف ..

ولم ألح عليها مرة ثانية ..

خفت أن يؤدى الحاحى الى ازدياد خوفها ، وهروبها ..

وبقيت واقفا أمامها محتفظا بابتسامتى الكبيرة ، متعمدا أن أنظر اليها نظرة هادئة ليس فيها دهشة ، وليست نظرة فاحصة ..

وبعد برهة رفعت سامية اصبعها ووضعته فى فمها .. كما يفعل الأطفال .. وأخفت رأسها وهى تبتسم فى خجل ساذج .. ثم خطت داخل الغرفة ..

وأغلقت الباب وراءها .. وأنا أشير لها الى المقعد الكبير الوثير فى الحجرة ، وأقول فى حنان :

— اجلسى يا سامية ..

والتفتت بسرعة الى الباب الذى أغلقته وراءها .. ونزعت اصبعها من فمها .. ونظرت الى فى تساؤل خائف ..

وقلت لها ردا على خوفها :

— كيف حالك .. وكيف حال اخوتك ..

ولم تجبنى ..

ظلت تنظر الى برهة هـــذه النظرات الخائفة .. ثم هدأت نظراتها .. واتجهت الى المقعد الكبير فى خطوات هامسة ، كأنها تسير فى نومها .. وجلست .. وعادت تضع اصبعها فى فمها .. وتبتسم فى خجل ساذج ..

وجلست على مقعد آخر قبالتها .. وأنا صامت .. وهى صامتة .. ثم قمت وفتحت أحد الأدراج وأخرجت صندوق بسكوت أحتفظ به دائما خلال رحلاتى ، لأتناول منه اذا جعت بين وجبات الطعام .. وقدمت اليها الصندوق .. وأنا أقول :

— هذا بسكوت من مصر ..

ورفعت اصبعها من فمها .. ونظرت الى نظره فرحة .. وترددت قليلا .. ثم أخذت قطعة بسكوت .. واحتفظت بها فى يدها .. لم تأكلها ..

قلت :

— لماذا لا تأكلينها .. ان مصر مشهورة بالبسكوت ؟

قالت فى صوت خافت خجل :

— سأحتفظ بها .. ذكرى من مصر !

قلت :

— كلى هذه القطعة .. وخذى قطعة أخرى للذكرى !

وابتسمت ..

وقطعت قطعة صغيرة من البسكوت ، ثم وضعت يديها فى حجرها ، ونكست رأسها .. وعادت الى الصمت ..

وتمسكت أنا أيضا بالصمت ..

تركتها تقاوم نفسها ، لتبدأ فى الحديث ..

وفجأة رفعت رأسها ، وقالت فى صوت رفيع كأنه صوت طفلة:

— هل ستذهب الى لبنان بعد أن تغادر باماكو

قلت كاذبا .. وأنا أنظر اليها نظرة فاحصة :

— نعم .. سأذهب الى لبنان ..

ولمعت عيناها ببريق حاد ، وقالت كأن الطفلة تهم بالبكاء :

— هل تأخذنى معك ؟

وانتظرت قليلا ، ثم قلت فى هدوء كأن ليس فيما تطلبه غرابة :

— يسعدنى أن آخذك معى ..

قالت فى فرح :

— متى ؟

وأنا أعلم أن الكذب ليس الطريق الصحيح لعلاج المريض النفسانى ، ولكنى وجدت نفسى مضطرا للكذب فى هذه الحالة .. لم يكن لدى الوقت الكافى لأتبع الطرق السليمة فى العلاج .. وقلت وأنا أخفى كذبى تحت ابتسامتى :

— ربما بعد أربعة أيام ..

قالت وهى تهلل كالأطفال :

— صحيح ؟!

قلت :

— صحيح .. ولكن .. حدثينى عن لبنان .. انك تعرفينه أكثر مما أعرفه ..

وألقت رأسها على المسند الخلفى للمقعد ، وقالت والسعادة تبرق فى عينيها :

— لبنان جميل .. جميل .. انه جنة .. لقد كنا نقيم هناك فى عالية .. فوق بيروت .. كنا نقيم فى قصر كبير .. وفى كل يوم

كنا ننزل الى بيروت .. ان بيروت كبيرة .. مزدحمة .. فيها كل شيء .. كل شيء تريده تجده هناك .. و ..

وتركتها تتكلم ، وقمت من جانبها ، وأمسكت بدفتر مذكراتي الطبية ، وجلست خلف رأسها ، على حافة السرير .. كنت أريد أن أبتعد عن عينيها ، حتى أتركها تتحدث الى نفسها بصوت عال ..

واستطردت سامية قائلة :

— وكانوا يقيمون هناك حفلات لأبي .. كل ليلة يقيمون له حفلة .. وكان يقف ويلقي قصائد من شعره .. والناس تصفق .. كل الناس تصفق .. وتهلل .. تصفيقا كثيرا .. و ..

واستطردت طويلا في حديثها عن الحفلات التي كانت تقام لأبيها في بيروت .. كانت تصف كل حفلة بأدق تفاصيلها .. تصف حتى ألوان الطعام .. وأشكال الأطباق والشوك والسكاكين .. وتذكر أسماء كثير من المدعوين .. كانت تتكلم كأنها حاضرة في الحفلة .. كأن كل هذا حدث اليوم ، لا من عشرين سنة ..

ولكني لاحظت أنها في خلال حديثها الطويل ، لم تتحدث عن نفسها أبدا .. لم تقل ماذا كانت تفعل خلال هذه الحفلات ..

وقاطعتها قائلا ، وأنا أجلس خلف رأسها :

— هل كنت تحضرين هذه الحفلات ؟

وسكتت مرة واحدة .. ولم تلتفت الى برأسها .. ظلت عيناها معلقتين في الفضاء .. كأنها نسيت أني معها في الحجرة ..

وكأن صوتي ينبعث من داخلها ، لا من شخص آخـر يجلس معها ..

وتنفست سامية بعنف ، كأن شيئا يضغط على صدرها ..

ولم تجب على سؤالي ..

عادت تتحدث عن لبنان ، والحفلات التي أقيمت لهم هناك .. وقالت :

— وكانت جرائد لبنان تكتب عن أبي .. كل يوم تكتب عنه .. وتنشر صورته ..

وقاطعتها قائلا :

— وصورتك أنت .. هل كانت تنشر في الصحف ..

وسكتت مرة ثانية .. وبدأت تعود الى التنفس بصعوبة .. ووجهها يزداد بياضا ..

ثم قالت كأنها تحلم :

— صورتي .. صورتي ..

ثم استراحت أنفاسها ، واستطردت :

— كانت الجرائد تنشر كل قصائد أبي .. كان له ديوان من الشعر .. و ..

لقد استطاعت مرة ثانية أن تهرب من سؤالي .. اذ هناك شيئا تهرب منـه رغم ارادتها .. شيء لا تملك القـدرة على مواجهته ..

وتركتها تتحدث عن لبنان طويلا ..

ثم فاجأتها بسؤال آخر :

— وماذا حدث بعد أن رجعت من لبنان ؟

وسكتت ..

وفى هذه المرة ازدادت أنفاسها ثقلا ، حتى خيل الى أنها تحشرج .. وازداد وجهها بياضا .. وقبضت بقوة على مسندى المقعد الذى تجلس عليه ، حتى نفرت عروقها من تحت جلد يديها .. وبدأت قطرات من العرق تنبثق فوق جبينها .. ولم تجب على سؤالى ..

مرت فترة كافية ، ولم تجب ..

وأعدت السؤال بلهجة أكثر حزما ، كأنى أطاردها ..

— ماذا حدث بعد أن رجعت من لبنان ؟

وأصبحت أنفاسها خوارا .. وبدأ يبدو عليها أنها تخوض معركة عنيفة .. قاسية .. تمزق أعصابها .. وتمزق أنفاسها ..

ثم قالت فى صوت عال .. عال جدا .. كأنها استطاعت أخيرا أن تفر من المعركة :

— وفى لبنان زار أبى رئيس الجمهورية .. وأنعم عليه بوسام .. و ..

وسكتت مرة واحدة ..

ثم أحنت رأسها ، ووضعت يديها فى حجرها ، وهدأت .. وقطرات العرق لا تزال معلقة فوق جبينها ..

واستنتجت أنها لا تريد أن تتذكر شيئا بعد عودتها من لبنان وهى طفلة .. لا تستطيع أن تتذكر ..

وفى نفس الوقت لا تريد أن تتذكر ما كانت تعمله هى فى

لبنان .. أو لا تستطيع أن تتذكر .. انها ترى الصورة .. صورة لبنان .. ولكنها لا ترى نفسها فى هذه الصورة .. ترى أباها .. واخوتها .. وتعلم أنها كانت معهم .. ولكنها لا ترى نفسها ..

وكان من المستحيل أن أستمر فى تحليلها .

كانت قد تعبت .. بحيث لم تعد تحتمل مزيدا من التشخيص العلاجى .. فقمت من خلف راسها .. وتقدمت اليها وفى يدى صندوق البسكوت . وقلت فى حنان :

— لا تنسى أن تأخذى قطعة للذكرى ..

ورفعت الى عينيها ..

ورأيت فيهما دموعا واقفة ، تعجز عن أن تنحدر ..

وقلت وأنا أبتسم لها ابتسامة كبيرة :

— لا تنسى أن تأتى لزيارتى غدا لنتفق على موعد السفر الى لبنان ..

وبرقت عيناها من خلال دموعها ، وقالت فى حزم غريب :

— نعم .. سأحضر غدا ..

وقامت تسير فى خطواتها الهامسة ، كأنها تسير فى نومها .. وأغلقت الباب وراءها ..

وعدت الى مذكراتى ، وأخذت أراجع ما سجلته فيها من كلام سامية ، ثم كتبت جملة واحدة :

توقف فى نمو الشخصية ..

وهى حالة نادرة فى الأمراض النفسية .. فأحيانا يحدث للشخص فى سنوات طفولته أو صباه حادث عنيف يسقط فى

العقل الباطن ، ويبلغ من عنفه أن يسيطر العقل الباطن سيطرة عنيفة على العقل الواعى ، بحيث يشل نموه .. ويظل ــ أى العقل الواعى ــ يتحرك فى حدود العقـل الباطن .. أى يظل العقل الواعى طفلا .. ويكبر الشخص .. يكبر فى عمره .. ويكبر فى جسده .. ولكن دائرة نشاط عقله لا تكبر .. تظل محدودة فى نطاق العقدة التى تشكل العقل الباطن ..

وقد توقف نمو شخصية سامية منذ عادت من لبنان ..

انها لا تزال تعيش فى العمر الذى عادت به من هناك .. عمر الخامسة .. أو العاشرة .. ولا يزال عقلها يدور فى هذه الأيام .. انه يدور عبر السـنين ، كعجلة معلقة فى الهواء .. يدور على الماضى .. وكل ما قطعه من مسافة هو المسافة التى تصل بها الى عمر العاشرة .. وبعدها علق عقلها فى الهواء ..

ما هو هذا الحادث الذى وقع لسامية فى طفولتها ، وأوقف نمو شخصيتها ..

وأجهدت نفسى فى محاولة تصور هذا الحادث ..

ربطت بين كلامها ، وبين سؤالها المبهور عن عبد الوهاب ، وليلى مراد ، وهذه الحالة الهسترية التى انتابتها عندما سمعت صوت أم كلثوم ..

ولكنى لم أستطع أن أصل الى شىء ..

انها حالة مستعصية ..

ومثل هذه الحالات قد يستغرق علاجها أكثر من مائة جلسة ، تستمر شهورا طويلة ..

وقد كنت مقررا أن أغادر باماكو فى اليوم التالى .. وقد أستطيع أن أمد اقامتى أربعة أيام أخرى .. ولكن لا أكثر من هذا .. فانى مرتبط بمواعيد محددة فى القاهرة ..

هل تكفى أربعة أيام لعلاج سامية ؟

ثم هناك سامى ..

ربما كانت حالته أكثر استعصاء ..

ووقعت فى حيرة بين مواعيدى فى القــاهرة ، وبين لهفتى على اكتشاف سر هــذه النفوس .. لأكتشف من خلالها سر افريقيــا !

ونظرت فى ساعتى ..

ياه .. انها الواحدة بعد الظهر !

وسامى لم يأت ..

ربما لن يأتى ..

وتركت غرفتى بسرعة ، ونزلت الى قاعة الطعام ، وقد قررت أن أبدأ بعد تناول غدائى البحث عن سامى ، ما دام سامى لم يبحث عنى ..

***

وخرجت من الفندق بعد الغداء ، وقد وضعت على رأسى القبعة الكبيرة الفلين .. قبعة الرحالة ستانلى مكتشف افريقيا .. وسرت فى خطوات سريعة حازمة نحو بيت سامى .. واحساس

كبير علا صدرى ، بأنى ـ أنا الآخر ـ فى طريقى لاكتشاف افريقيا ..

وكنت أعرف بيت سامى بالتقريب ، رغم أنى سبق أن زرته مرتين .. ووجدت نفسى تائها فى بعض الشوارع الجانبية .. ولم أيأس .. بل ان هذا الضياع أحسسنى أكثر بأنى مكتشف .

وبعد مدة استطعت أن أصل الى بيت سامى الذى يقع فوق الدكان الكبير .. وصلت دون أن أسأل أحدا من المارة عن الطريق ..

ورأيته ..

رأيت سامى ..

كان واقفا داخل الدكان الكبير .. وكان لدهشتى يصرخ فى وجه شاب زنجى ، استنتجت أنه يعمل صبيا فى الدكان ..

وازدادت دهشتى ..

لقد رفع سامى كفه وبدأ يصفع الشاب الزنجى .. والشاب ينحنى تحت وقع الصفعات ، ويصخب ببعض الألفاظ التى لا أفهمها .. لعلها ألفاظ من لغة « الولف » ... لغة أهالى باماكو ..

وسامى لم يرنى ..

كنت واقفا خارج الدكان ، أرقبه من بعيد ..

واستنتجت أنه فى حالة تسيطر عليه فيها شخصية الرجل الأبيض .. الرجل الذى يستطيع أن يقسو على الزنوج ..

وتركت مكانى واتجهت الى داخل الدكان بعـد أن انتهى سامى من ضرب الشاب الزنجى وصرفه من أمامه ..

واستقبلنى سامى فى دهشة يشوبها الارتباك ..

ثم سيطر على نفسه بسرعة .. وصاح يرحب بى بلهجتـه اللبنانية ..

ثم بدأ يتكلم .. يتكلم كثـيرا .. والكلمات المفخمة تملأ شدقيه ..

كان يتكلم ، وكأن لا شىء حدث بالأمس ..

كأنه لا يعلم أنى عرفت بحالته ..

وتلفت داخل الدكان ، فلم أر أخاه سليم .. وخطر لى خاطر جديد .. ربمـا كانت شخصية الرجل الأبيض تسيطر عليه أكثر عندما يغيب عنه سليم .. ربما كان وجود شخصية سليم ، تضعف شخصية الرجل الأبيض فى سامى ..

ولكن لماذا ؟

ثم ما هى المناسبة التى تتحول فيها شخصية الرجل الأبيض الى شخصية الرجل الأسود ..

وقلت لسامى فى لهجة عتاب :

— لماذا لم تمر على هذا الصباح .. لقد انتظرتك ..

وسكت سامى قليلا ثم قال وهو ينظر الى بوز حذائه :

— لا أدرى ..

ثم استطرد كأنه ندم على اجابته :

— كنت مشغولا فى الدكان ..

قلت وأنا أبتسم له :

ـــ هل تستطيع أن تصحبني الآن في جولة .. لقد وعدتني.. أتذكر ..

ونظر سامي في وجهي نظرة سريعة كأنه يختبرني .. ثم ابتسم كأنه اطمأن الي ، ونادى صبي الدكان وألقى اليه بأوامره ، ثم وضع ذراعه في ذراعي ، قائلا :

ـــ هيا بنا .. سأصعد بك الى قمة كولوريا .

وأشار باصبعه الى الجبل الذي يطل على مدينة باماكو .. واستطرد قائلا :

ـــ انه يسمى جبل كولوريا .. وفوق القمة يقع قصر الحاكم الفرنسي ..

قلت في بساطة :

ـــ أظن أني في حاجة الى الذهاب الى الفندق أولا .. لأبدل ثيابي !

وهز سامي كتفيه بلا مبالاة .. وعاد يتكلم كلامه الكثير ، وهو يسير وعيناه مركزتان فوق بوز حذائه ..

ووصلنا الى الفندق ..

ودعوت سامي للصعود الى غرفتي ..

ثم اقترحت عليه أن نبقى في الغرفة قليلا الى أن نتناول قدحا من الشاي ..

وكنت في كل ذلك أحاول أن أبدو بسيطا ، طبيعيا ، كأني لا أتعمد شيئا ..

ثم قطعت كلامه الكثير ، وسألته فجأة :

— أين كنت ليلة أمس ؟

وسكت سامي ونظر الى نظرة عتاب مر ، كأنى غدرت به ، ثم أحنى رأسه وقال كأنه يتنهد :

— كنت مريضا .. أنت تعلم أنى كنت مريضا .. لقد رأيتك بجانبي بعد أن أفقت من اغمائى ..

قلت وأنا أحاول أن أبدو مهذبا رقيقا :

— أقصد ، أين كنت قبل أن تصاب بالاغماء ؟

قال :

— كنت فى البيت .. لقد خرجت من البيت فى الساعة السادسة وذهبت الى حانة تسمى لاكريون .. وكنت مقررا أن امر عليك فى الساعة الثامنة ، كما وعدتك .. ولكن يظهر أنى بدأت أشعر بدوار .. فعدت الى البيت .. وأصابنى الاغماء .. ولم أفق الا بعد أن حقنتنى .. نسيت أن أشكرك على اسعافى !!

وسكت ..

وبقيت صامتا ، أتشاغل بتغيير ثيابى .. ثم بعد برهة .. قال سامى كأنه يخاطب نفسه :

— أخى سليم يقول انى كنت فى الغابة .. ولكننى لا أذكر أنى ذهبت الى الغابة .. ان سليم يتهمنى دائما بتهم غريبة ..

ونظرت اليه .. ان وجهه يبدو متعبا .. بدأ يميل الى الاصفرار .. وبدأت أنفاسه ترتبك .. كأنه يبذل مجهودا ليتذكر شيئا ..

وحولت عينى عن وجهه .. وعدت أدعى التشــاغل بتنظيم ثيابى .. وأنا أنتظر أن يستطرد فى حديثه ..

ولكنه سكت ..

سكت طويلا ..

ثم فجأة بدأ يعود الى كلامه الكثير .. ولم أكن أريد هذا الكلام .. كنت أريد أن أحصر ذهنه فى نطاق حالته .. ولذلك قاطعته مرة ثانية قائلا :

— لقد رأيت هذه الفتاة ..

وقال فى دهشة :

— أى فتاة ؟

قلت :

— الفتاة الزنجية التى مرت ونحن فى مقهى فالى .. لقد رأيتها فى اليوم التالى على شاطىء النيجر ..

قال :

— أنا لا أذكر فتاة مرت بنا فى فالى ..

ثم ابتسم ابتسامة كبيرة وقال مداعبا :

— يظهر يا دكتور أنك معجب بالبنات الزنجيات ..

ونظرت اليه فى دهشة ..

انه يبدو صادقا ..

انه فعلا ، لا يذكر هذه الفتاة .. الفتاة التى جرى وراءها فى مقهى فالى .. والتى رأيتها ترقص معــه فى الغابة .. والتى

ضربتنى وبكت وأنا أحقنــه بالمخدر .. والتى فرت من أمامى عندما سألتها عن سامى ساعة أن التقيت بها على شاطىء النيجر ..

وهو لا يذكر أيضا أنه كان فى الغابة .. يرقص بين الزنوج .. ويحرضهم على الثورة على البيض .. ويرفع عصا غليظة ويحاول أن يعتدى بها على أخيه سليم ..

انه لا يذكر كل ذلك ..

لا يذكر شخصيته الثانية ..

هناك انفصال تام بين الشخصيتين ..

ليس هناك خيط واحد يربط احدى الشخصيتين بالأخرى ، ويساعد سامى على اكتشاف حالته ..

ولم أحاول أن أذكره بشىء .. ليس من واجب الطبيب أن يذكر مريضه ، ولكنه فقط يساعده على التــذكر .. ولو كنت أصررت على أنى رأيته فى الغابة ، وعلى أنه على علاقة بهــذه الفتاة .. لفقدت ثقته بى .. وهرب منى .. كما يهرب من عقدته .. وكما يهرب من أخيه سليم ..

وجلست قبالته ، وتناولت قدح الشاى بين يدى فى هدوء ، وقلت فى بساطة :

— انك لم تحدثنى أبدا عن قصــة هجـرة والدك الى افريقيا .. انى مشوق لسماع هذه القصة ..

وابتسم سامى ابتســامة اعتزاز ، وقال كأنه يتحدث عن فخر كبير :

— لقد جاء والدى الى افريقيا منذ حوالى خمسين سنة ..

وكان من أوائل المهاجرين اللبنانيين الذين وصلوا الى باماكو .. وكان مهاجرا شريفا .. لم يحاول أن يحتال على الزنوج .. ولم يحاول أن يكون عميلا للفرنسيين .. كما كان يفعـــل كثير من المهاجرين .. ولكنه تاجر بشرف .. وأحبه الزنوج .. واحترمه الفرنسيون .. وكسب كثيرا .. وكان أول من بنى فى باماكو عمارة من ثلاثة أدوار .. بنى أربع عمارات كانت تدر عليه دخلا كبيرا .. لا يقل عن أربعة ملايين فرنك فى العام .. ولكنه كان مسرفا .. كان يصرف كثيرا .. خصوصا على الأدب .. فقد كان أديبا كبيرا .. كان شاعرا لا يقل عن أحمد شوقى ، أو عن ايليا أبو ماضي .. وكان الصحفيون اللبنانيون يأتون لزيارته كل عام فيغدق عليهم من أمواله .. وأصدر على حسابه مجلة أدبية فى بيروت .. واشترى مطبعة خصيصا ليطبع دواوين شعره .. كانت أول مطبعة تصل الى باماكو .. و ..

واستطرد سامى يتحدث عن أبيه فى فخر واعتزاز كبيرين .. أكبر من فخر واعتزاز أى ابن بأبيه ..

ثم قال :

— ومات .. وعقب موته اكتشفنا أنه أضاع كل ثروته .. وأن كل العقارات التى تركها مثقلة بالديون .. ان أبى لم يكن فاشلا .. ولكنه كان فنانا .. كان شاعرا .. فعاش كما يعيش كبار الشعراء .. مسرفا .. وقد مررنا بســـنوات قاسية بعد موته .. اضطررت أنا وأخى سليم أن نشتغل لدى مهاجر آخر .. ولكن أخى سليم استطاع أن يبدأ فى التجارة من جديد ..

ثم سكت برهة ، وانطلق كأنه يؤكد شيئا لنفسه لا لى :

— ان سليم تاجر ناجح .. انه أكثر من يفهم فى التجارة ..

واستطرد يتحدث عن أخيه سليم طويلا .. ثم بدأ يتحدث عن سامية .. ولم يتحدث عنها كثيرا .. قال عنها بلامبالاة .. انها مريضة .. ضعيفة ..

قلت أقاطعه :

— مريضة بماذا ؟

قال :

— لا أدرى .. ولكنها دائما مريضة .. عصبية .. منذ توفى والدى .. لقد كانت صدمة كبيرة لنا .. ولكنهـا كانت صدمة أكبر بالنسبة لسامية .. فقدكان والدى يختصها بحبه وتدليله ..

ثم عاد يتحدث عن والده ..

وقد استغرق حديثه منذ بدأه أكثر من ثلاثة أرباع ساعة .. انتهينا خلالها من تناول الشاى .. ولم يمل أبدا هذا الحديث .. وأنا أتتبعه بكل نشاط ذهنى ، أحاول أن أكتشف من خلال كلماته شيئا يساعدنى على تحليل حالاته ، والوصول الى عقدته .. ولكن لا شيء .. ان كل ما ذكره يبدو عاديا .. وهو يتحدث وهو ثابت الشخصية منتظم الأنفاس ، قوى الأعصاب.. ولم ألاحظ عليه أنه يهرب من مرحلة من مراحل حياته سواء فى حياة والده ، أو بعد وفاته ، بل كان حديثه مسلسلا متصلا ، يبدو دائما منطقيا ..

ولكنى فجأة تنبهت الى ملاحظة ..

انه لم يتحدث عن أمه ..

كل هذا الحديث الطويل ، ولم يذكر شيئا عن أمه ..

من المستحيل أن يتحدث انسان عن تاريخ حياته ، ويذكر كل هذه التفاصيل الدقيقة ، دون أن يذكر أمه بكلمة واحدة .

وسألته فجأة ، كأنى فرحت بهذه الملاحظة التى اكتشفتها فى حديثه :

— وأمك .. انك لم تحدثنى عن السيدة والدتك !

وسكت سامى برهة ..

ونظر الى هذه النظرة التى يختبرنى بها .. وقطب جبينه قليلا .. ثم أرخى عينيه وقال فى اختصار مريب :

— ماتت ..

وسكت وبدأ ينظر الى بوز حذائه ..

وعاجلته بسؤال ثان :

— متى .. متى توفيت ؟

وشد أنفاسه من صدره كأنه يشدها من بئر عميقة وقال :

— بعد وفاة والدى بشهور ..

قلت كأنى ألاحقه :

— هل كانت مع والدك عند ما جاء الى افريقيا ؟

ورفع عينيه وفيهما نظرة حادة ، وقال كأنه ينفى تهمة :

— لا .. لا .. لقد تزوجها بعد أن هاجر بمدة طويلة .. وبعد أن أصبح غنيا .. سافر الى لبنان .. وتزوجها هناك ، ثم عاد بها ..

قلت وأنا اركز عينى فوق وجهه :

— لابد أنها كانت سيدة عظيمة ..

وهب واقفا مرة واحدة وهو يزفر فى ضيق ، وقال دون أن يرد على :

— ألا تريد أن تذهب الى قمة كوبالا ؟!

وخفت أن أفقد ثقته .. فقمت واقفـا معه ، وأنا أنسحب انسحابا منظما :

— نعم .. لقد انسانا الحديث قمة الجبل ..

ولكن كانت هناك محاولة أخرى يجب أن أبذلهـا قبل أن نخرج من الغرفة .. فقلتها له وأنا أنظر الى رقبته كأنى لاحظت شيئا لم ألحظه من قبل :

— ما هذا الخدش ؟

وأشرت الى الخـدش الذى يشق رقبته ، والذى سبق أن لاحظته فى صباح الليلة التى تركنى فيهـا فى مقهى « فانى » وجرى وراء الفتاة الزنجية ..

ووضع يده بسرعة فوق الخـدش كأن شـيئا قد لسعه فى رقبته ، وقال وهو يبتسم فى ارتباك ..

— لا أدرى .. انى دائما أصاب بخدوش دون أن أدرى . ربما لأنى أتحرك دائما وأنا سارح مع خيـالى .. انى شاعر كما تعلم .. كوالدى ..

ونظرت فى عينيه ..

انه يبدو صادقا ..

وخرجت من الفندق ، وركبنا سيارة صعدت بنا الجبل .. وأنا فى حالة يأس .. فى يأس من أن اكتشف الشخصية الثانية فى سامى وأضعها أمام عينيه ، ليبرأ منها بمجرد أن يراها .. انى أتخيل (الشخصية الثانية) دائمـا كالثعلب الذكى الذى يجيد الاختباء ومراوغة الصياد .. وأنا الصياد .. وهذه (الشخصية الثانية) التى تسيطر على سامى أشد خبثا من كل (الشخصيات الثانية) التى صادفتها فى حياتى .. انها تجيد الاختباء فى العقل الباطن ، بحيث لا يستطيع أى عقل واع اكتشافها .. لا عقل سامى ، ولا عقلى !

وقد قدرت انى يجب أن أبحث عن طريق آخر لاكتشاف عقدة سامى .. طريق آخر غير هذه الجلسات التى تعودت أن أعقدها مع مرضاى .. كان يجب أن اكتشف العقدة قبل العلاج ، لا من خـلال العلاج .. وهـذا طريق خاطىء فى علم النفس التطبيقى .. فان جهل الطبيب بعقدة المريض ، يساعد المريض أكثر على اكتشاف عقدته بنفسه .. وعند ما يكتشفها بنفسه ، يتأكد شـفاؤه منها .. ولكنى كنت مضطرا الى الالتجاه الى الطريق الآخر ، فأيامى فى باماكو معدودة .

— ٥ —

كانت الخطة التى وضعتها هى أن ألجأ الى سليم الأخ الأصغر ليروى لى تفاصيل حياة سامى وسامية .. كل تفاصيل طفولتهما .. التفاصـــيل الدقيقة الواهية .. فربما استطعت من خلال هـــذه التفاصيل أن اكتشف سرهما .. سر العقدة النفسية التى ترقد فى العقل الباطن ، وتسيطر على تصرفاتهما .

وكان يجب اذن اتصرف بسرعة اذا أردت أن أصل الى شيء قبل أن يحل موعد رحيلى عن باماكو .. فقررت أن أبحث عن سليم فى نفس الليلة .

وقد عـــدت من زيارة جبـــل كوبالا بصحبة ســـامى ، فى الساعة الثامنة مساء .. وألح على سامى أن نذهب الى مقهى « فالى » ، ولكنى اعتـــذرت بأنى متعب ، وانى فى حاجة الى النوم ..

وتركته وعـــدت الى الفندق .. وأرسلت أحـــد الخدم الى سليم فى بيته ، ومعه رسالة يسلمها اليه ، ارجوه فيها أن يأتى لمقابلتى .. حالا ..

وعاد الخادم ..

وجاء وراءه سليم .. ينظر الى بعينين واسعتين ، متسائلا عن سر هذه الدعوة المفاجئة .. وصعدت به الى غرفتى ، وقلت له بصراحة ان حالة أخته سامية وأخيه سامى ، من الحالات الخطرة التى قد تؤدى الى ا لجنون الكامل .. وان علاجهما يعتمد على معرفة السبب الذى أدى بهما الى هذه الحالة .. والسبب لابد أنه يرجع الى طفولتهما .. حادث وقع لكل منهما ، أو ظروف أحاطت بهما أيام الطفــولة .. ثم طلبت منه أن يروى لى كل تفاصيل حياتهما ، فربما كانت فيها تفاصيل يجهلانها هما الاثنان .. تفاصيل حوادث سقطت فى عقل كل منهما الباطن ، واختفت عن عقله الواعى .. فاذا عرفنا هذه التفاصـــيل فربما استطعت علاجهما

ولم يكن الأمر سهلا على سليم ، فهو لا يعرف التفاصيل التى يمكن أن تســاعدنى على عــلاج سامية وسامى .. فكان يستطرد فى حديث طويل عن والده وعن عائلته لا يخرج عما سمعته من أخته وأخيه .. وكل الفرق انه لم يكن فخورا بأبيه كما كانا ، انه يتحدث عنه بكثير من الامتعاض ويحمله مسئولية اضاعة ثروة العائلة ..

وانقضى أكثر من ثلاثة أرباع ســاعة وأنا أسمع منه هذا الكلام العادى ، الى أن قال وهو يتحدث عن أخته سامية :

— لقد كان أبى يدللها الى حد أنه أقنعها بأن لها صوتا يمكن أن تغنى به .. و ..

وقاطعته فى فرح كأنى عثرت على أمنيتى :



— هل تقول انه كان لها صوت جميل .. ؟

قال وهو ينظر الى دهشا :

— أبى كان يعتقد ذلك .. بل انه كان يدعو لها مطربا من بيروت يقيم معنا ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام .. يقيم على حسابنا ، ويقبض أجرا كبيرا .. ليدرب سامية على الغناء .

قلت فى لهفة :

— وهل كانت تغنى ؟

قال :

— طول النهار كانت تغنى .. لم تكن تتوقف عن الغناء الا عندما تنام ..

ثم لوى شفتيه ، وقال :

— صوتها فظيع ..

قلت :

— أقصد هل كانت تغنى فى حفلات عامة ؟

قال كأنه يعاتبنى :

— لا طبعا .. لا أحد يستطيع أن يطيق غناءها .. و ..

وسكت برهة ، ثم قال ، كأنه تذكر شيئا :

— نعم .. لقد غنت فى حفلات عامة .. عند ما كنا فى لبنان كان أبى يدعوها الى الغناء فى الحفلات التى تقام لتكريمه ..

قلت بسرعة :

— وهل كانوا يصفقون لها ..

قال :

— طبعــا .. انهم كلهم منــافقون .. كلهم كانوا يبتزون أموال أبى .. ان هــذه الحفلات كانت تقــام خصيصا لابتزاز أمواله .. وطبعا .. اذا غنت ابنته ، فيجب أن يصــفقوا لها .. اللصوص .. لقد سرقوا أموال أبى !

قلت :

— وهل كانوا ينشرون صورتها فى المجلات اللبنانية ..

قال :

— طبعا .. وكانوا يسمونها أحيانا مطربة افريقيا .. وأحيانا مطربة المهجر .. وأحيانا المطربة الصغيرة .. بل ان أحد المنافقين ممن يكتبون فى هــذه المجلات ، قارن بين صــوتها وصوت أم كلثوم .. تصور .. وطبعا كان أبى يدفع .. يدفع بسخاء .. بجنون !

قلت :

— كم كان عمرها ..

قال :

— عشر سنوات ..

قلت :

— وهل لا تزال تغنى ؟

قال وهو ينظر الى فى دهشة :

— لا ..

قلت :

— لماذا ؟

قال :

— لأنى منعتها من الغناء ، بعد موت والدى !

قلت وأنا أسجل فى مذكراتى الطبيسة ، ما يدور بيننا من حديث :

— لماذا منعتها من الغناء ؟

قال فى حدة كأنه تضايق من أسئلتى :

— لأنها لم تحس بالمصيبة التى حلت بنا .. لم تستطع أن تقدر أننا أفلسنا .. ظلت تعيش نفس الحياة التى كانت تحياها أيام والدى .. تقضى يومها كله فى الغناء ، وسماع اسطوانات أم كلثوم وعبد الوهاب .. ولا تعمل شيئا آخر .. لا تريد أن تشتغل فى البيت .. لا تريد أن تدخل المطبخ .. فمنعتها عن الغناء .. كنا فى حاجة اليها لتعمل معنا .. لتبحث معنا عن لقمة العيش.. لتوفر علينا على الأقل أجر الخادم .

وجذب نفسا عميقا من صدره ، ثم استطرد فى حدة ، ولهجته اللبنانية تكاد تشق جدار الغرفة :

— تصور .. لقد ضبطتها يوما تبيع بعض أثاث البيت .. أتدرى لماذا .. لتأخذ ثمنها وتحوله الى بيروت ثمنا لبعض المجلات الفنية التى تصدر هناك .

قلت :

— وماذا فعلت ؟

قال :

— ضربتها ..

قلت :

— وكيف أقنعتها بالكف عن الغناء ؟

قال فى حدة :

— بالضرب .. كنت أضربها كل يوم .. وفى مرة شججت رأسها .. وفى مرة أخرى شققت شفتها .. لقـــد كنت أضربها بقسوة ، وكان هذا لصالحها ، وصالح العائلة التى وجدت نفسها فجأة ، لا تملك ثمن رغيف عيش ..

قلت ، دون أن أعلق على كلامه :

— لقد لاحظت أنها بكت وانتابها حالة هستيرية عند ما سمعت أسطوانة أم كلثوم .. فهل تصيبها هذه الحالة دائما ؟

قال :

— نعم .. كلما سمعت أم كلثوم ..

قلت :

— منذ متى ؟

قال :

— بعد سنوات طويلة من موت أبى .. كنت قد جمعت كل الأسطوانات التى يحتفظ بها أبى ، وكل المجـــلات والجرائد العربية ، وكل دواوين الشعر .. جمعت كل ذلك ووضعته فى دولاب واحتفظت بالمفتاح فى جيبى .. حتى لا أشغل أحدا من العائلة عن السعى الى لقمة العيش .. عن معاونتى فى العمل .. كنت أريد أن أشعرهم بأننا نبدأ الحياة من جديد .. اننا بمثابة مهاجرين جدد .. والمهاجر الجـــديد لا يضـــيع وقته فى سماع

الأسطوانات ، وقراءة المجلات ، وكتابة الشعر .. الشعر .. الشعر .. يخرب بيته ها الشعر .. على صرمايتى ها الشعر .

وضغط على أسنانه حتى برزت عظام فكيه من تحت جلد وجهه .. ثم تنهد ، كأنه ينفث النار فى وجه كل الشعراء ، واستطرد قائلا :

ـ وبعد سنوات .. سنوات طويلة ، خلت خلالها أن سامية قد نسيت الفنساء .. خطر لى يوما أن افتح الدولاب وأسمع أم كلثوم .. وما كدت أضع الأسطوانة فوق الفونغراف حتى لمحت سامية ترتعش .. ثم عند ما انطلق صوت أم كلثوم ، بدأت سامية تبكى .. ثم صرخت .. وقامت تجرى ، وهى فى حالة هستيرية ..

قلت :

ـ وماذا فعلت ؟

قال :

ـ لا شيء .. كنت أعلم أن سامية مجنونة .. وقد أدرت أسطوانة أم كلثوم عند ما جئت لزيارتنا ، لأريك جنونها .. و .. ولكن لماذا تسأل كل هذه الأسئلة ؟

ورفعت رأسى اليه ، وقلت وأنا ابتسم ابتسامة كبيرة :

ـ هذه عقدة سامية ..

قال وهو يرفع حاجبيه فى دهشة :

ـ ماذا تقصد ؟

قلت فى هدوء :

— هذا هو سر حالتها الشاذة .. ان أختك قضت طفولتها في حلم كبير .. حلم سيطر على كل دقيقة من عمرها .. كانت تحلم بأن تكون يوما مطربة كبيرة كأم كلثوم أو ليلى مراد .. وأن تخرج من باماكو ، هذه المدينة الصغيرة المجهولة ، لتعيش في بيروت أو في القاهرة .. وتغني .. ويصفق لها الناس .. وتنشر الصحف صورتها .. وقد جعل والدك من هـذا الحلم حقيقة عاشت فيها سامية فعلا .. غنت أمام الناس .. وسمعت تصفيقهم .. ورأت صـورتها في الصـحف .. ثم جئت أنت لتنتزعهـا من هـذه الحقيقـة .. تنتزعهـا من الحيـاة .. ولا شـك أنها حاولت أن تقاومك .. ولكن لا شيء كان يسـاعدها على المقـاومة .. ان أباها الذي كان يحول أحـلامها الى حقائق ، مات .. وباماكو ليس فيهـا جمهور تغني له .. وليس فيهـا صحف تنشر صورتها .. وكانت تقاوم اليأس .. الذي يصور لها أنها ستقضي كل حياتها في هذه المدينة .. بلا مجد .. انسانة مجهولة .. مهملة .. لا يصلها بعالمها شيء .. ولا يصلها بأصلها الممتد الى بيروت ، شيء .. ثم بدأت تضربها .. وقسوت عليها في الضرب .. فبدأت تخاف .. كانت تخافك أنت أولا .. ثم أصبحت تخاف أحلامها .. هذه الأحلام التي تتصورها على أنها حقيقة تعيش فيها .. وضغط الخوف على الأحلام ، فأسقطها في العقل الباطن .. ولكن الحلم عند ما سقط في العقل الباطن ، سقط على أنه حقيقة .. حقيقة حياتها .. ولم يجد عقلها الواعي حقيقة أخرى يعيش فيها .. فاستسلم للعقل الباطن .. أصبح

يعيش فى نفس هذه الحقيقة الوهمية .. ولكنه — أى العقل الواعى — لا يستطيع أن يجاهر بهذه الحقيقة ، لأنه يخاف منك .. يخاف من الضرب .. فكانت النتيجة أن شل .. أصبح أسيرا لوقعة معينة راقدة فى العقل الباطن .. لم يكبر بعد ذلك .. لم يتقدم به العمر .. انه لا يزال يعيش فى عمر العاشرة عند ما وقفت سامية تغنى أمام الجمهور فى بيروت .. ولكنه — كما قلت لك — لا يستطيع أن يواجه هذه الحقيقة .. فتجاهلها .. يعيش فى كل ما حولها ، الا اللحظة ان وقفت سامية لتغنى أمام الناس .. هذه اللحظة يتجاهلها العقل الواعى ، لأنه خائف .. خائف منك .. لذلك فعند ما تتحدث سامية عن الأيام التى قضتها فى بيروت تذكر كل شىء ، الا ما يتعلق بحلمها الكبير .. انها لا تذكر أنها وقفت أمام الناس وغنت .. ولا تذكر أنهم صفقوا لها ، ولا تذكر أن الجرائد نشرت صورتها .. لا تذكر شيئا من ذلك .. لأن الخوف من ضربك وقسوتك .. جعل عقلها يهرب من بقايا حلمها ..

وقال سليم وكأنه لم يفهم شيئا مما قلت :

— ولكن لماذا تبكى وتنهار عندما تسمع صوت أم كلثوم ؟

قلت فى بساطة :

— لأن صوت أم كلثوم عند ما يأتيها من الخارج ، لا من داخلها .. داخل أحاسيسها .. يثير المعركة من جديد بين عقلها الواعى وعقلها الباطن .. يحاول عقلها الواعى أن يتحرر من عقلها الباطن ، ويجرى وراء صوت أم كلثوم ، لأنه حقيقة ليست

وهمية .. حقيقة تنبعث من أسطوانة .. ولكن سامية لا تحتمل هذه المعركة .. انها أضعف منها .. فتنهار !

وقال سليم فى حنــان عجيب ، وواضـــح أنه لم يفهم كل ما قلته :

— هل كل ذلك لأنى كنت أقسو عليهــا بالضرب .. انى مستعد أن اعتذر لها .. أن أكفر عن سيئاتى .. أن أدللها .. أن أعطيها كل ما تريد ! ..

قلت :

— هذا لا يكفى .. أتدرى ماذا يحدث الآن لو تحررت من الخوف منك ؟

قال :

— ماذا ؟

قلت :

— سيفصح عقلها الباطن عن نفسه عن طريق عقلها الواعى .. وأغلب الظن أنهــا فى هذه الحالة ستتصور نفسها أم كلثوم .. وتأخذ فى الغناء فى كل مكان .. فى الشارع .. فى البيت .. وكلما وجدت أمامها مجموعة من الناس .. تغنى على أنها أم كلثوم .. وتعتقد أن الناس يعتبرونها فعلا .. أم كلثوم ..

قال والدموع فى عينيه :

— ماذا نفعل .. كيف نعالجها .. كيف نشفيها ..

قلت :

— لا أعرف بعد .. ولكننا لن نستطيع أن نشفيها الا اذا ساعدتنا هى على شفاء نفسها .

ونكس سليم رأسه ، وتنهد فى يأس .. ثم قام واقفا وأنفاسه تئن كأنه قد شاخ ، وقال فى صوت يائس :

— أظن يجب أن أعود الى البيت ..

قلت فى رجاء :

— امكث قليلا .. بقى أمامنا سامى .. لم نحل عقدته بعد !

قال فى اعياء :

— الساعة الواحدة صباحا .. وأنا متعب !

قلت :

— تحمل .. من أجل سامى .. سآتى اليك بفنجال شاى ..

وعاد سليم وجلس فى مقعده صامتا .. وخرجت من الغرفة أبحث عن خادم ، يأتى لنا بالشاى .. ثم عدت ، وقدمت الى سليم صندوق البسكويت الذى أحتفظ به دائما ، وقلت :

— بسكوت من مصر !

ومد سليم يده فى تكاسل ، دون أن يبدو عليه الفرح عندما سمع اسم « مصر » كما يحدث دائما لأخته وأخيه .. والتقط قطعة بسكوت وضعها بين أسنانه ، وهو يقول :

— لقد قلت لك كل شىء عن سامى .

قلت :

— لا .. ليس كل شىء .. لابد أن هناك تفاصيل أخرى فاتك أن تذكرها ..

وسكت سليم ، يحاول أن يتذكر ..

وفاجأته بسؤال أحاول أن أعينه به على التذكر :

— كيف كانت والدتك تعامل سامى ..

ورفع الى رأسه فى دهشة ، كأنه يسألنى عن سر هذا السؤال ، ثم أرخى عينيه ، وقال فى فتور :

— كما كانت تعاملنا ..

وقضم قطعة بسكوت ، ثم عاد ورفع رأسه ونظر الى بكل عينيه ، وقال كأنه يتهمنى :

— هل قال لك سامى شيئا بخصوص والدتنا .

قلت وأنا أبتسم كأنى أرشوه بابتسامتى :

— لا .. لقد حدثنى عن كل شىء الا عن والدته .. لذلك سألتك !

وعاد سليم ونكس رأسه ، وسكت مدة طويلة .. تشاغل خلالها بأكل البسكوت ، ثم قال :

— ربما كانت تقسو عليه أكثر منا .. ولكنها لم تكن أما قاسية .. كانت خير السيدات .. سيدة عظيمة حقا .. لو أن أبى ترك لها ادارة أعماله لما أفلسنا .. وقد كانت تعرف أننا سنفلس .. كانت دائما تحذر أبى من اسرافه وجنونه ..

ولاحظت الفرق الكبير بين اللهجة التى يتحدث بها سليم عن والدته ، واللهجة التى تحدث بها سامى عنها ..

ان سليم معجب بأمه ، ويحتقر أباه ..

وسامى معجب بأبيه ، ويحتقر أمه ..

ودونت هذه الملاحظة فى مذكراتى الطبية ووضعت تحتها خطين ..

وعدت أسأل سليم :

ــ ولكن لماذا كانت تقسو عليه ؟

وانفجر سليم كأنه يدافع عن أمه :

ــ لأنه كان مشاكسا .. كان مجنونا .. كان يتحداها دائما .. وكان يقضى وقته يلعب مع الأطفال الزنوج فى الشارع .. فى التراب .. كانت أمى تحاول أن تجعل منه انسانا متمدينا .. كانت تصنع له الثياب الأنيقة بيديها .. ولكنه كان يذهب بالثياب الأنيقة ليلعب مع الأطفال الزنوج فى التراب ..

قلت وقد أحسست أنى بدأت أمسك بطرف الخيط :

ــ هل كان يلعب مع الأطفال الزنوج ؟ .. حدثنى عن هذه الفترة !

وأمال سليم رأسه الى الوراء ، وضغط بأصابعه على جبينه ، يحاول أن يتذكر ، ثم قال :

ــ لقد كان قاسيا فى لعبه معهم .. كان يضربهم .. بل انه طعن مرة أحد الأطفال فى ذراعه بخنجر كان يلعب به .. ورغم ذلك كان الأطفال الزنوج يحبونه .. وينتظرونه .. وكان يسرق من البيت قطع الشيكولاتة والحلوى ، ويحملها اليهم ، وبعد أن يوزعها عليهم ، يبدأ فى اللعب معهم .. ويتطور فى لعبه الى حد القسوة ..

وسكت سليم ..

ولاحقته بسؤال آخر :

— ماذا كان موقف الزنوج الكبار منــه .. ماذا كانوا يفعلون وهم يرونه يضرب أولادهم ، ويقسو عليهم ؟!

قال :

— انهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .. سامى أبيض .. ابن سيد .. ولا يستطيع زنجى أن يمسه و ..

وسكت سليم قليــلا كأنه تذكر شيئا جديدا ، وقال فى صوت حالم كأنه يحادث نفسه :

— كانت هناك امرأة .. امرأة زنجية متوســطة العمر .. رأيتها كثيرا تأتى الى المكان الذى يلعب فيه سامى .. وكانت تناديه ، فيذهب اليها ، ويجلس بجانبها على الأرض .. وكانت تعطيه بعض الهدايا الصغيرة .. لعبا وعرائس من التى يلعب بها الأطفال الزنوج .. ثم تتحدث اليه .. تتحدث اليه طويلا ، وهو هادىء بجانبهــا على غير عادته .. وقد ســألته عنها مرة فقال بلا اهتمام انه لا يعرفها .. وانها تروى له قصصــا جميلة من أساطير الزنوج .. وكان سامى يردد دائما أسطورة ســوتدياتا مؤسس مملكة مالى .. أسطورة خرافية تروى كيف استطاع طفل كســيح أن ينتصر على وحوش الغــابة .. وعلى أعداء قبيلتــه .. وأن يضم كل القبــائل ويؤسس مملــكة حاربت الفرنسيين ستين عاما ..

وتنهد سليم وقال فى صوت غريب :

— كانت امرأة غريبة ..

قلت فى لهفة :

— وهل عرف والداك خبر هذه المرأة ؟

قال سليم :

— لقد قلت له يوما عنها .. كنت قد تشاجرت مع سامى ، وظننت أنى لو أبلغت والدى بقصة هذه المرأة ، فسيضربه .. سيضرب سامى ..

قلت :

— وماذا فعل ؟

قال :

— اهتم أول الأمر .. وأرسل أحد موظفيه ليتحرى خبر هذه المرأة ..

قلت واللهفة تشتد بى :

— ثم ..

قال :

— ثم لا شىء .. قال لى والدى بعدها بأيام ان هذه المرأة كانت تعمل خادمة عندنا .. وكانت بمثابة خادمة خاصة لسامى .. ثم طردت .. وانها لذلك تحب سامى ، وتحب أن تراه ..

قلت :

— وماذا قالت والدتك ؟

قال فى بساطة ، وهو لا يدرى ما أسعى الى معرفته :

— نفس الكلام ..

قلت :

— ألم تلاحظ شيئا بعد ذلك ؟

قال وهو يحاول أن يتذكر :

— لم ألاحظ شيئا ، الا أن هـذه المرأة الزنجية لم تعد تظهر فى المكان الذى يلعب فيه سامى .. ربما خافت من الموظف الذى أرسله لها والدى ..

وسكت سليم ..

وبقيت برهة أفكر فى أن أواجهه بالحقيقة التى اكتشفتها من حديثه .. ولكنى ترددت .. فلم أكن واثقا أن ما اكتشفته هو الحقيقة .. كنت لا زلت فى حاجة الى بعض الأسئلة الأخرى ، قبل أن أثق فى اكتشافى ..

وعدت أسأله :

— كم سنة قضـاها والدك فى افريقيـا قبل أن يتزوج والدتك ؟

ونظر الى سليم فى دهشـة ، كأنه لا يفهم جدوى هـذا السؤال ، ثم هز رأسه فى استسلام ، وأجاب :

— أكثر من عشر سنوات ..

قلت بسرعة :

— هل كان والدك ناصع البياض .. أم كان لونه يميل الى السمرة ؟

واشتدت الدهشة فى عينى سليم ، وقال فى حدة :

— لماذا .. لماذا هذا السؤال ؟

قلت فى هدوء :

— أرجوك .. أجبني !

قال وهو ينظر في وجهي بكل عينيه ، كأنه في حالة تحفز :

— كان أبيض .. ناصع البياض .. في لوني .. ولكن لماذا تسأل ؟

قلت وأنا أبتسم كأني أمسح على اعصابه :

— لأني لاحظت أن سـامي يختلف في لونه عنك ، وعن سامية .. انه أسمر !

وهب سليم واقفا ، وصرخ في وجهي وعيناه غاضبتان :

— فهمت الآن ما تفكر فيه .. وأؤكد لك أنه خطأ .. خطأ مائة في المائة .. لقد كانت هناك اشاعة سمعتها وأنا صغير تقول ان والدي تزوج من احدى الزنجيات .. ولكنها كانت اشاعة كاذبة .. ماتت في حينها ..

قلت في هدوء :

— هل أنت متأكد أنها كانت اشاعة ؟

قال :

— متأكد .. وواثق .. ومؤمن .. ان هذه الاشاعة تطلق على كل مهاجر أعزب يأتي الى افريقيا .. والمهاجرون العزاب قد يختلطون بالزنجيات ، ولكنهم لا يتزوجون منهم .. ولن أسمح لأحد بأن يلطخ سمعة والدي بعد أن مات ..

قلت في هدوء وحزم :

— أنا لا أسعى لتلطيخ سمعة والدك .. أنا غريب .. ولن

ترانى هنا بعد أيام .. وكل ما يهمنى هو أن أعرف الأسباب التى أدت الى حالة سامى حتى أستطيع علاجه ..

ونظر الى سليم فى تردد ، ثم بدأ يهـدأ ، وعاد يجلس فى مقعده وهو يتنهد ويزفر أنفاسه فى ضيق ..

وقال وهو يحاول أن يبدو هادئا :

— صدقنى يا دكتور .. ان ما خطر ببالك بعيد عن الحقيقة .. وسامى أخى من أبى وأمى .. لقد كانت أمى تقسـو عليه لمصلحته لا لأنه ليس ابنها .. ولكنه عندما كان يمرض كانت تجن عليه .. وكانت تنام معه فى فراشه .. وتعالجه بنفسها .. ولاتتركه الا بعد أن يشفى .. مستحيل أن تفعـل امرأة كل ذلك لطفل ليس ابنها .. وأنا .. أنا لم أشـك يوما فى أن سامى أخى .. شقيقى .. من أبى وأمى.. كان يجب أن أعرف ، ولو باحساسى ، اذا لم يكن شقيقى ..

وكان سليم يتحدث بصدق وحرارة .. وبدأ ايمانى بحقيقة اكتشـاف يتزعزع من جديد .. وكان يجب أن أتأكد قبل أن أخطو خطوة واحدة فى علاج سامى .. لو خطوت خطوة واحدة على أساس استنتاج خاطىء ، فلن أصل الى شىء ، ربما أسأت الى سامى ، ونقلته الى حالة أخطر مما هو فيها ..

ومضت فترة طويلة وأنا أفكر وأدخن سيجارة ، وسليم يحلق فى شفتى كأنه فى انتظار حكم البراءة .. براءة والده .. أو الاعدام !

وفجأة خطر لى خاطر جديد ..

وقلت وأنا أكثر لهفة :

— هل تذكر الفتاة الزنجية التى كانت ترقص مع سامى ، عندما شاهدناه فى الغابة ..

وعقد سليم ما بين حاجبيه ، ثم انطلق يعد أن تذكر :

— بيندا ..

قلت :

— أهذا اسمها ؟

قال :

— نعم .. بيندا .. انها ابنة الكاباكا .. ابنته الثانية ..

قلت فى فضول :

— من هو الكاباكا ؟

قال :

— انه زعيم القبيلة .. الزعيم عندهم يسمى كاباكا ..

قلت :

— هل تذكر هذه المرأة الزنجية ، التى كانت تروى لسامى فى طفولته أساطير الزنوج .. أقصد ، هل تذكر وجهها .. شبهها ..

وعقد سامى حاجبيه ، ثم قال بعد برهة :

— نعم .. أذكرها ..

قلت :

— هل تعتقد أن هناك شبها بين هذه المرأة ، وبيندا ابنة الكاباكا .. أى شبه ولو بسيط !

واحتارت النظرات فى عينى سليم ، ومضت فترة طويلة ، وهو متردد ، كأنه يضـع الوجهين ، وجه بينـدا ووجه المرأة الأخرى ، بجانب بعضهما ، فى خياله .. ثم قال فى دهشة كبيرة :

— نعم .. هناك شبه .. شبه كبير .. كيف عرفت ؟

قلت ، وأنا أبتسم :

— لم أعرف .. ولكنى استنتجت !

وظل مبحلقا بعينيه فى وجهى ، برهة .. ثم نكس رأسه فى استسلام ،كأنه أحس بأن حبل الحقيقة بدأ يلتف حول عنقه ..

واستطردت قائلا :

— أريد أن أقابل بيندا ..

ورفع رأسه فى ذعر ، وقال :

— لماذا ؟

قلت فى حزم :

— لابد أن أقابلها .. من أجل سامى !

ونكس رأسه وهو يهزها موافقا ..

قلت :

— وأريد أن أقابل الكاباكا ..

وهز سليم رأسه موافقا ، دون أن يتكلم .. ونهض من على مقعده فى بطء .. كأنه يئن .. كأنه شاخ .. وقال فى صـوت يائس :

— غدا سأمر عليك الساعة الثامنة لنذهب الى الغابة ..

قلت وأنا أنظر فى ساعتى :

ـ الساعة الآن الثالثة صباحا .. مر على فى الساعة العاشرة .. انى فى حاجة الى النوم ، حتى أستطيع أن أعمل .. وغدا يوم عمل شاق ..

وهز رأسه موافقا ، دون أن يتكلم ..

وودعته حتى باب غرفتى وأنا أبتسم له مشجعا ..

***

ونمت ليلتها وخيالى يواجه أضخم عقدة نفسية فى افريقيا .. عقدة الأبيض ، والأسود ..

— ٦ —

جاء سليم الى غرفتى بالفندق فى الساعة العاشرة تماما .. كأنه قضى الليل كله واقفا على بابى ، الى أن دقت الساعة العاشرة ، فدق الباب .. وكان واضحا أنه لم ينم .. وجهه باهت .. وبصمات الأرق تحت عينيه .. ولم يتكلم .. حيانى تحية الصباح بتمتمة لم أتبين كلماتها .. ثم جلس صامتا ورأسه ملقى فوق صدره ، ينتظرنى الى أن أنتهى من ارتداء ثيابى ..

وكنت أعلم سر العذاب المرتسم على وجهه .. ان المشكلة بالنسبة له لم تعد مشكلة سامى ، بل مشكلة أبيه .. هل تزوج أبوه من امرأة زنجية كما استنتجت .. وهل سامى من أم زنجية ؟

والمشكلة كبيرة بالنسبة له .. مشكلة تمس سمعة أبيه ، وكرامة العائلة كلها .. فالبيض الذين يتزوجون من زنجيات ، لهم وضع خاص فى المجتمع الافريقى .. وضع يشين الكرامة ..

ولم أحاول أن أخفف عن سليم .. فقد كنت أعلم أيضا أن الحل الوحيد هو أن يكتشف معى الحقيقة ..

ووضعت على رأسى القبعة الفلين الكبيرة .. قبعة الرحالة ستانلى مكتشف افريقيا .. ثم وضعت ذراعى فى ذراع سليم

وأنا أبتسم له مشجعا .. وخرجنا من الفندق ، وركبنا سيارته فى طريقنا الى الغابة للبحث عن بينـــدا ابنة الكاباكا .. زعيم القبيلة ..

ان الغابة في النهار أكثر صمتا ، كأن طيورها ووحوشـــها لا تصحو الا فى الليل .. حتى الأهالى الذين أراهم على جانبى الطريق يبدون نياما .. يســـيرون فى خطوات زاحفة صامتة ، بعكس ما رأيتهم يرقصون فى الليل .. كأنهم يخافون النهار ..

ولم أخف الغابة فى النهار .. ولكنى شعرت بالرهبة المثيرة .. ان فيها شيئا قويا يجذبك اليها .. شيئا يكاد يقتلعنى من داخل السيارة ، لأسير على قدمى بين أشجارها .. أسير الى بعيد .. الى بعيد جدا .. لأصل فى النهاية الى سر مجهـــول .. انه نفس الشعور الذى تحس به عندما تبحلق فى مياه البحر فتحس أنك تريد أن تلقى نفسك فيها .. ونفس الشعور الذى يجذبك عندما تمد بصرك الى أفق الصحراء فتحس أنك تريد أن تتوغل فيها حتى تصل الى الأفق .. ان للأرض قوة جاذبية نفسية ، لا تقل عن قوة جاذبيتها المادية ..

وسليم يقود السيارة صامتا .. وأنا ألتفت الى كل شجرة أمر بها كأنى سأجد خلفها أسدا أو فيلا أو على الأقل قردا .. ثم أيأس من الالتفات خلف الأشجار .. فأعتـــدل فى جلستى وأحاول أن أركز ذهنى فى حالة سامية ، وسامى ..

لقد اكتشفت عقدة سامية .. وربما كانت هذه العقدة هى عقدة كل بنات المهاجرين فى افريقيا .. هذه الفتاة البيضاء التى



تجد نفسها فى مجتمع ضيق ، متأخر ، يضيق عن أحلامها ، وعن ثقافتها .. فتعيش كل يوم وهى تفكر فى العالم البعيد .. العالم الواسع .. العالم الأبيض .. وتحاول دائما أن تنقل مظاهر هذا العالم الى عالمها الضيق .. فتقتبس منه آخر الأزياء ، وآخر الأغانى ، وآخر الرقصات .. وتحرص على أن تتبع أخباره .. انها تعرف عن تايرون باور أكثر مما يعرف بنات باريس ، وأكثر مما يعرف بنات القاهرة .. وكل ذلك لا يحل عقدتهن ، بل يزيدهن احساسا بها ..

ولكن عقدة سامية كانت أكبر من ذلك نتيجة للظروف التى أحاطت بها ، حتى سببت لها توقف نمو شخصيتها ، وتركتها تعيش فى سن العاشرة ، بعد أن تعدت العشرين .

.. المهم ..

كيف أستطيع تخليص سامية من حالتها فى خلال أربعة أيام ، هى كل ما بقيت لى قبل أن أغادر باماكو ؟

هذا ما لم أعرفه بعد ..

وسامى ..

ان سر عقدته — على الأرجح — أنه ولد من أب أبيض وأم سوداء .. وكل ابن يولد من أب أبيض وأم زنجية ، هو ابن معقد .. وسر عقدته لا يرجع الى سبب فسيولوجى .. ليس لأن اختلاط الدم الأسود بالدم الأبيض يسبب مرضا عضويا ينتج عنه عقدة .. لا .. ولكن لأن المجتمع فرض على هؤلاء الملونين معاملة خاصة تعقد نفوسهم .. ولأن اختلاف مجتمع الأب عن

مجتمع الأم ، اختلافا كبيرا يسبب تصارعا فى نفسية الابن بين مجتمعين .. وينتهى التصارع بعقدة ..

وهؤلاء الأبناء يسمون فى افريقيا « ماتيس » .. وتسمع لفظ « ماتيس » من أفواه الافريقيين ، ومن أفواه البيض ، يشوبه رنة احتقار وازدراء ..

والماتيس يكونون مجتمعا خاصا فى افريقيا .. ليس مجتمعا زنجيا ، وليس مجتمعا أبيض .. انما هو مجتمع «وسط» .. وأفراده يقفون دائما فى « الوسط » .. جمالهم وسط .. ليس جمال الزنوج ، ولا جمال البيض .. ذكاؤهم وسط .. ليس ذكاء الزنوج ولا ذكاء البيض .. وعواطفهم وسط .. لا يستطيعون أن يتحمسوا للبيض ، ولا أن يتحمسوا للزنوج .. وتقاليدهم وسط .. خليط من تقاليد البيض وتقاليد الزنوج .. وحتى لهجتهم وسط .. خليط من لهجة الزنوج والبيض .. وديانتهم وسط .. انهم يؤمنون بالمسيح أو بمحمد باحساس وثنى .. ويؤمنون بالوثنية باحساس مسيحى أو اسلامى .. وثقافتهم وسط .. ليسوا مثقفين ولا غير مثقفين .. و ..

وهذا « الوسط » لم يختره هؤلاء الأبناء .. انه ليس موقفا يقفون فيه باختيارهم .. ولكنه مفروض عليهم .. فرضه عليهم تصارع مجتمعين مختلفين .. صراع بين مجتمع البيض ومجتمع السود ، يدور من حولهم ، ويدور أيضا داخل نفوسهم .. وينتهى بهم الى هذا الموقف الوسط .. انه موقف أشبه بالسجن لا يستطيعون الفرار منه .. لا يستطيعون أن يندمجوا بكيانهم

وعواطفهم داخل مجتمع البيض ، ولا داخل مجتمع السود ..
والبيض ينظرون اليهم من خلال قضبان السجن بازدراء ولا
يثقون فيهم لأنهم ليسوا منهم .. والزنوج أيضا ينظرون اليهم
فى شك وريبة لأنهم ليسوا منهم .. والجميع يقلبون شفاههم فى
تأفف ويهمسون .. ماتيس !

والماتيس ليسوا فى افريقيا وحدها .. انهم فى كل بلد
مستعمر ، وفى كثير من البلاد التى لم تستعمر واختلطت فيها
الألوان .. فى الهند .. فى اليابان .. فى أمريكا .. وأيضا فى
بعض البلاد العربية ، ففى المملكة السعودية يوجد هذا الوضع
الاجتماعى بين القبائل الأصيلة التى نبتت فى أرض الجزيرة ،
وبين القبائل والطوائف الدخيلة المستوطنة .. ويسمون هناك
« بنى خيضر » .

ولكن ..

حالة سامى تختلف عن حالة أى فرد آخر فى مجتمع الماتيس ،
لأنه لا يدرى أنه ماتيس .. لا يدرى بعقله الواعى ، ولكن عقله
الباطن يدرى .. وكانت النتيجة أن أصبحت له شخصيتان ..
يتغلب العقل الواعى فتسيطر على سامى شخصية الرجل الأبيض
.. ويتغلب العقل الباطن فتسيطر عليه شخصية الرجل الأسود ..

فاذا افترضنا أن هذه الحالة صحيحة ، فكيف أستطيع أن
أعالجه فى هذه الفترة القصيرة التى سأقضيها فى باماكو ؟

حتى هذه اللحظة ، لم أكن قد وصلت الى طريقة العلاج ..
وكان كل ما يهمنى هو أن أكتشف المؤثر الذى تسيطر به احدى

الشخصيتين على الأخرى .. أن أكتشف المحرك الذى يحرك الشخصية الزنجية لتسيطر على تصرفات سامى .. متى يحدث هذا .. وفى أى مناسبة ؟! وكنت أعتقد أنى لن أكتشف هذا المؤثر أو المحرك ، الا بعد أن أقابل بيندا والكاباكا ..

وأوقف سليم السيارة على جانب الطريق .. وشد نفسا عميقا حزينا من صدره ، ثم نزل ودعانى الى النزول ، وسار بجانبى صامتا ورأسه ملقى فوق صدره ..

ومشينا بين أشجار الغابة ، ونحن نطأ بأقدامنا الأوراق الجافة المتساقطة على الأرض ، فتتكسر ، وينطلق من تحت خطواتنا صوت خشن كأنه صوت أنين أجش ..

ووصلنا الى القرية ..

نفس القرية التى زرتها بالليل ورأيت سامى يرقص فيها رقصة الزنوج .. ولكنها تبدو فى النهار كأنها خرابة .. صامتة .. فقيرة .. أكواخها كالحة .. والرائحة الزاعقة التى شممتها فى كل مكان من افريقيا ، تهب على قرية عنيفة .. رائحة أشبه برائحة السمك المجفف ، وفيها شىء مثير ، يثير أعصابك ، ويحيطك باحساس من الغموض ، والترقب والحذر ..

وبعض النساء جالسات أمام أكواخهن يقمن ببعض الأعمال اليدوية ، فى تراخ .. ورجال مستلقون على الأرض أنصاف عرايا .. نيام أو أشبه بالنيام .. والشمس تصب كل نارها ونورها على الساحة الفسيحة التى تتوسط الأكواخ فتبدو

الأرض من تحتها ناصعة الضوء كمرآة تزغلل عينيك ، وفحيح اللهب .. لهب الشمس .. ينطلق منها ، حتى تكاد تحس بأبخرته .

وأحكمت وضع قبعتى الكبيرة فوق رأسى ، ومشيت بجانب سليم نحو كوخ كبير نسبيا يتوسـط بقية الأكواخ .. ولمحنا بعض الأهالى ، فلم يتحـركوا من مكانهم .. ولا تكلموا .. ولكنى لاحظت عيونهم البيضاء تنصب على سليم وفى نظراتهم حقد وكراهية ..

وتقدم سليم من رجل جالس القرفصاء مستندا بظهره على جدار الكوخ الكبير ، وقال بلهجة آمرة ، وباللغة الفرنسية :

ــ أريد أن أرى الكاباكا ..

ولم يتحرك الرجل من مكانه .. ولم يتكلم .. أشار برأسه الى باب الكوخ الكبير .. ثم بدأ يتشاغل عنا بنبش الأرض بأصابعه ..

وقال سليم فى لهجة أكثر احتدادا :

ــ قم .. وبلغ الكاباكا اننا هنا ..

ولم يرفع الرجل رأسه الينا .. خط بأصبعه خطا طويلا فى التراب .. وظل صامتا ..

والتفت الى سليم وقال فى غيظ يحاول أن يكتمه :

ــ أنهم أكسل خلق الله .. انهم جثث ..

ولكنى لم اقتنع بأن الرجل كسول ، لقد رأيت فى تصرفه نوعا من التحدى .. نوعا من الكراهية الصامتة ...

وفى هذه اللحظة خرج صبى من الكوخ الكبير ، وما كاد

يلمحنا حتى عاد واختفى داخل الكوخ .. وبعد فترة خرج الينا رجل ضخم الجثة ، صارم ملامح الوجه ، يبدو فى الخمسين من عمره ، وربما كان أكبر من ذلك .. ربما كان فى الستين .. فان الوجوه السوداء تخفى تحتها عمر أصحابها .. وكان الرجل يرتدى بنطلونا قصيرا لونه كاكى .. وصدره عار ، يبدو قويا رغم بعض الترهل فيه ..

ووقف الرجل أمام باب الكوخ ، مرفوع الرأس وقد وضع يديه فى خاصرتيه ، ونظر الى سليم نظرة قوية ، ليس فى قوتها حقد ولا كراهية .. وظل صامتا الى أن تقدم اليه سليم ، ومد يده مصافحا ، وانحنى أمامه انحناءة صغيرة ، وقال بالفرنسية فى صوت يبدو لزجا مما فيه من نفاق :

— صباح الخير ..

وصافحه الرجل فى كبرياء ، وهو يتمتم :

— صباح الخير ..

ثم قدمنى اليه سليم ، وأعقب قائلا :

— انه من مصر ..

وابتسم الكاباكا ابتسامة مخلصة ، وقال وهو يشد على يدى ..

— لقد سمعت عن مصر كثيرا .. لى صديق من السنغال زار مصر وتعلم فى الأزهر .. انه الآن فى مدينة دكار ..

ثم التفت الى سليم قائلا فى لهجة جادة :

— فى خدمتك ؟

وأرخى سليم عينيه وقال وهو يزفر :

— أخى سامى مريض .. والدكتور يعتقد أنك تستطيع أن تساعده فى علاجه .

وارتفعت نظرة جزع الى عينى الزعيم ، وقال فى لهفة :

— مريض .. مريض بماذا ؟

وقلت فى هدوء :

— انها حالة عصبية ..

وأحنى الزعيم رأسه وهو يتنهد ، كأنه كان ينتظر أن يكون مرض سامى متعلقـا بحالة عصـبية .. ثم التفت الى وقال فى استسلام :

— كيف أستطيع أن أساعدك ؟

قلت بسرعة :

— أريد أن أقابل بيندا ..

ورفع الى عينين مندهشتين وقال كأنه فوجىء :

— بيندا .. ابنتى بيندا .. لماذا ؟

قلت :

— أعتقد أنها تعرف عن سامى أشياء كثيرة لا نعرفها .. وقد أستطيع أن أصل من خلال ما تعرفه ، الى سر الحالة التى يعانيها ..

قال وهو ينظـر فى عينى كأنه يبحث فيهما عن حقيقتى ، وشخصيته تقف قوية أمام شخصيتى :

— انى أعرف عن سامى كل ما تعرفه بيندا .. اسألنى أنا !

قلت فى ثبات :

— أفضل أن أسأل بيندا أولا ..

وصمت الزعيم فترة ، وقد حنى رأسه يفكر ثم رفع رأسه وسألنى فى صوت حزين :

— هل حالته خطيرة ؟

قلت :

— أعتقد أنها خطيرة ..

وهز رأسه فى أسى ، ثم قال وهو يشير الى داخل الكوخ :

— تفضل ..

ودخلنا الى قاعة دائرية فسيحة ، أرضها من التراب ، ملقى عليه بعض الأبسطة الوطنية ، وسقفها من فروع الأشجار ترتفع بشكل مخروطى ، وحوائطها من الطين .. وقد انتثرت فيها قطع غير متجانسة من الأثاث .. مقعد من الجريد .. ومقعد آخر كبير من الخشب .. وصندوق وضعت فوقه مرتبة .. ومصطبة من الطين كمصاطب الفلاحين عندنا ، فرشت فوقها حصيرة من ألياف الشجر المجدول ..

وقدم لى الزعيم المقعد الكبير .. وجلس سليم على المصطبة وهو يزفر أنفاســه ولا يتطلع حوله .. ودخل الزعيم من باب جانبى ، وعاد وخلفه بيندا ..

انها نفس الفتاة التى رأيتها فى مقهى « فالى » .. ورأيتها مرة ثانية مع صديقتها على شاطىء النيجر .. ورأيتها مرة ثالثة ترقص مع سامى فى ساحة القرية ..

وكانت بيندا حافيه القدمين ، وثوب من القماش الملون .. غير مفصل .. مجرد قطعة من القماش .. تلفه جسدها كله حتى أعلى نهديها ..

ووقفت متعمدا بمجرد أن دخلت ، كأنى أقدم احترامى ..

وصافحتنى رهى تنظر فى وجهى ..

وقلت لها مبتسما :

— أظن أننا التقينا من قبل ..

قالت فى بساطة دون أن تبتسم :

— أظن ..

ثم التفتت الى سليم . وهزت رأسها تحيه فى رشاقة وكبرياء .. وسليم لا يهتم بتحيتها ، ولكنه يحلق فيها بكل عينيه ، كأنه يقارن بين شبهها ، وبين هذه المرأة الأخرى التى كانت تأتى الى سامى فى طفولته وتروى له أساطير الزنوج ..

وعادت بيندا ورفعت عينيها الى تسألنى :

— ماذا تريد أن تعرف ؟

والتفت الى الزعيم قائلا :

— هل أستطيع أن أجلس معها على انفراد ؟

ونقل الزعيم عينيه بينى وبين سليم ، وتردد قليلا ، ثم خرج من الباب الجانبى ..

ونظرت الى سليم أطلب منه أن يخرج هو الآخر ، فخرج من الباب الذى يؤدى الى ساحة القرية ..

ثم التفت حولى وقلت لبيندا وأنا أشير الى المصطبة :

— تفضلى ..

وخطت بيندا فى كبرياء ، وجلست ورأسها مرفوع ، وقلت لها :

— ان سامى مريض .. مريض جدا .. حالته العصبية قد تؤدى به الى الجنون ..

ولم تندهش بيندا وهى تسمعنى .. كأنها كانت تعلم أن سامى يمكن أن يكون مجنونا .. ولكن طفت على وجهها مسحة من الحزن .. ونكست رأسها ..

وعدت أقول :

— انى أحاول أن أجمع كل تفاصيل حياته ، لعلى أستطيع أن أعرف سر حالته ، فأعالجها ..

قالت :

— هل هذا ضرورى لعلاجه ؟

قلت :

— نعم .. انه الطريق الوحيد لعلاجه ..

قالت :

— اسألنى ..

قلت :

— كيف التقيت به ؟

وتنهدت قائلة :

— كما يقابل الشبان البنـــات .. كنت فى المدينة ورآنى سامى .. فسار ورائى .. وركبت الاوتوبيس الصغير الذى يمر

بقريتنا ، فركب ورائى .. ثم بدأ يكلمنى .. ودهشت لأنه كان يتكلم لغتنا ، لغة الولف ، بطلاقة .. كأنه واحد منا .. وأخذنا تبادل الحديث الى أن وصلنا الى القرية .. وأذكر أنه كان يومها يبدو متعبا .. كأنه مريض .. وجهه باهت .. والعرق يتصبب من جبينه .. وأنفاســه لها صوت .. ولكننا بعد أن وصــلنا الى القرية ، وقدمته لوالدى ، وجلس بين الفتيان ، بدأ يستريح .. ثم اشترك معنا فى رقصــة الليل .. واكتشفنا كلنا أنه راقص ماهر .. كأنه واحــد منا .. وكل الشبان ، وكل البنــات ، فى قريتنا أحبوه ..

وسكتت بيندا كأنها انتهت من الحديث ..

وقلت باهتمام شديد :

— وماذا حدث بعد ذلك .. ماذا حدث فى ذلك اليوم ..

قالت :

— ظل يرقص حتى انتهى الليل .. ثم نام فى أحد الأكواخ . ولكننا لم نجده فى الصباح .. ولم يره أحد وهو ينصرف .. وضحكنا كثيرا يومها ..

وسكتت بيندا قليلا وهى تتنهد :

— لقد طلب منى أبى يومها ألا أقابل سامى مرة ثانية ..

قلت :

— لماذا .. هل يحرم عليك والدك مقابلة الشبان ؟

ونظرت الى فى دهشة قائلة :

— لماذا يحرم على مقابلة الشبان .. لا .. لم يحرم على مقابلة الشبان ..

قلت :

— ولماذا حرم عليك مقابلة سامى :

قالت فى صوت حائر :

— لا أدرى .. ربما كان يعلم ما يمكن أن يصيبنى من عذاب لو أحببته ..

قلت :

— هل أحببته ؟

قالت :

— لقد حاولت منذ اليوم الأول أن أنساه .. أن أقنع نفسى بأنى لا أهتم به .. ولكنى كنت أنتظره .. اكتشفت أنى أنتظر بكل دقيقة من عمرى ، لعله يعود .. ولكنه لم يعد .. مرت ثلاثة أسابيع ولم يعد ، كنت خلالها أقاوم اهتمامى به .. ولكنى لم أستطع أن أستمر فى المقاومة ، فذهبت الى المدينة ، وأخذت أبحث عنه .. بحثت عنه كثيرا الى حد أنى جازفت ودخلت الأماكن المخصصة للبيض .. الى أن وجدته فى مقهى فانى .. ووقفت أمامه .. فنظر الى كأنه لا يذكرنى .. فانصرفت غاضبة ولكنى لم أكد أخرج من المقهى وأسير بعض خطوات حتى شعرت بقدمين تتبعانى .. والتفت فاذا بى أجده ورائى .. وتكرر نفس ما حدث فى المرة الأولى .. حادثنى بلغتنا .. وركب معى الأتوبيس الصغير ، وهو يبدو متعبا مريضا ..

العرق يتصبب من جبينه ، وأنفاسه لها صوت .. ثم استراح بمجرد أن دخل القرية .. ورقص معنا .. ثم اختفى عند الفجر ..

ثم استطردت وهى تتنهد بحرقة :

— هذا هو حالنا دائما .

قلت :

— حتى اليوم ؟

قالت :

— حتى اليوم .

قلت :

— ألم يأت الى القرية أبدا من تلقاء نفسه ؟

قالت :

— أبدا .. فى كل مرة أذهب للبحث عنه .. وفى كل مرة يبدو كأنه لا يعرفنى .. ثم يتبعنى ..

قلت :

— تقولين انه كان يبدو فى كل مرة كأنه لا يعرفك .. بماذا تفسرين ذلك ؟

قالت :

— كنت أعتقد أنه يتجاهلنى ، حتى لا يلفت نظر أحد من البيض الينا ..

قلت :

— هل تعتقدين أنه يحبك ..

ونظرت الى فى غضب ، كأنها تلومنى على هذا السؤال ..
ثم انطفأت نظرتها .. ونكست رأسها .. وصمتت ..
قلت كأنى أثيرها :
ــ لماذا لا تريدين الاجابة على سؤالى ..
ورفعت رأسها فى بطء ، وركزت عينيها فى عينى ، وقالت فى ثبات :
ــ هل أنت حقيقة دكتور ؟
قلت فى دهشة :
ــ نعم .. هل تريدين التأكد ؟
وأخرجت من جيبى جواز سفرى الذى أحمله معى دائما ، وفتحته أمام عينيها ..
ولم تنظر الى جواز سفرى ، ولكنها عادت تقول وعيناها مركزتان فى عينى :
ــ هل تستطيع فعلا شفاءه ، لو عرفت كل شىء ؟
قلت :
ــ أعتقد ..
وأرخت عينيها عن وجهى ، ونكست رأسها ، وقالت فى صوت خفيض :
ــ لقد تزوجنى ..
قلت والدهشة تصرخ فى صوتى :
ــ من ؟
قالت ودمعة كبيرة تفر من عينها :

— سامي .. لقد عارض أبي كثيرا فى أن نتزوج .. بقى عام كامل وهو يرفض زواجنا .. ولكنه فى النهاية خشى على من الجنون .. وخشى على من أن أهرب من القبيلة .. فزوجنا ..

قلت :

— هل هو زواج مسجل ؟

قالت فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— هل هو زواج شرعي .. مسجل فى دفتر حكومى ؟

قالت :

— أبى له حق تزويج أفراد القبيلة .. ان قبيلتنا لا تعتنق الاسلام ، ولا المسيحية .. اننا وثنيون ..

وهززت رأسى معتذرا عن جهلى ، وعدت أسألها :

— وهل علم سليم بهذا الزواج ..

ونظرت الى فى غضب وقالت :

— لا طبعا .. لا أحد يعلم الا أفراد قبيلتنا وقد جمعهم أبى وجعلهم يقسمون بحق الآلهة ألا يبيحوا بالسر ..

قلت فى دهشة :

— لماذا .. لماذا أصر الزعيم على ابقاء هذا الزواج سرا ..

قالت وهى تتنهد :

— لا أدرى .. انه يقول دائما انه يعرف ما لا نعرفه ..

قلت :

— وكيف اتفقتما على الزواج .. أنت وسامى ..

قالت وعيناها تسرحان الى بعيد كأنهما تجرى وراء ذكرياتها :

— بعد أن انتهينا من الرقص .. قلت له : لنتزوج .. فضحك ضحكة كبيرة ، وشدنى من يدى وذهب بى الى والدى وطلب منه أن يزوجنا .. وثار والدى ، وعارض .. وظل يعارض أكثر من سبعة أشهر الى أن وافق .

قلت :

— وهل ظل سامى يختفى عند الفجر ، بعد زواجكما ؟

قالت :

— نعم .. لقد فكرت أن نتزوج لاعتقادى أنه لن يختفى بعد الزواج .. ولكنه ظل يختفى ..

قلت :

— ألم تلاحظى الطريقة التى يختفى بها ؟

قالت :

— لقد كان أحيانا يبقى معى ليلة واحدة ، وأحيانا يبقى يومين وثلاثة .. كان يبدو رقيقا هادئا كالعصفور .. وعند ما يرقص يبدو قويا ثائرا كالبرق .. وكنت خلال هذه الأيام لا أنام .. أظل أقبله حتى ينام وهو بين شفتى .. ثم أبقى مفتحة العينين خائفة من اللحظة التى يختفى فيها .. وفى هذه اللحظة يقوم من جانبى ويسير وكأنه لا يزال نائما .. وتبدأ قطرات

العرق تتصبب من جبينه .. وأنفاســـه تتلاحق ، ويخـــرج من القرية ، ويمشي في اتجاه المدينة ..

قلت :

— ألم تحاولي مرة أن تمنعيه من الخروج ؟

قالت :

— لا .. اني أخافه وهو في هذه الحالة .. وكنت أتبعه عند ما يخرج .. أمشي وراءه .. وأسبقه أحيانا ، ثم أعود اليه ، وأضع وجهي أمام وجهــه ، فينظر الى بعينين ذاهلتــين ، ولا يعرفني .. انه وهو في هذه الحالة لا يعرف أحدا .. لا يعرف أبي .. ولا يعرف أحدا من فتيان القبيلة ..

وتنهدت بيندا ، واستطردت قائلة في صوت حزين ، ولهجتها الفرنسية تتكسر فوق شفتيها المكتنزتين :

— لقد تعبت مرة من المشي وراءه .. فجريت اليه وتعلقت بذراعه وأخذت أهزه ، وأضرب بيدي على صدره ، وأصرخ في وجهه .. لعله يفيق .. ولــكن عينيه أضاءتا بنظرة غريبــة .. مجنونة .. ثم أخــذ يضربني .. ضربني بقســـوة وهو يلعنني بكلمات بذيئة .. لم يكن يلعنني وحدي .. بل كان يلعن كل الزنوج .. ومن يومها لم أعد أمشي وراءه .. كنت أتركه يختفي عند ما يريد .. وفي كل مرة أقرر ألا أراه ثانية .. ويمضي أسبوع أو أسبوعان ، وأنا أقاوم ، ثم لا أستطيع أن احتمــل شوقي اليه ، فأذهب الى المدينة للبحث عنه .. وأعود به الى القرية ..

وقلت فى لهفة :

— وعند ما تعودين به ، هل يذكر كل شىء بينكما ؟

قالت :

— انه يبدأ دائما بمغازلتى فى الاوتوبيس الصغير ، كأنه يلتقى بى لأول مرة .. وقطرات العرق فوق جبينه ، وأنفاسه لها صوت .. ولكنه يتطور خلال الطريق ، وعند ما نصل الى القرية يصبح كأنه واحد منا .. يذكر كل شىء .. بل يعتقد أنه لم يغادر القرية ولم يتركنى أبدا ..

قلت :

— ألم يحاول والدك أن يفسر لك هذه الحالة التى تنتاب سامى ؟

قالت والدموع واقفة بين جفونها :

— لا .. وعند ما كان يرى عذابى ، كان يلومنى ويحملنى المسئولية ، لأنى خالفت رأيه وصممت على الزواج من سامى ..

قلت فى هدوء الطبيب :

— شكرا .. هل أستطيع الآن مقابلة الكاباكا ؟

ونظرت الى فى توسل .. وبيـاض عينيها ينير وجهها .. وابتسامة غريبة ضعيفة تقف فوق أسنانها البيض ، وقالت :

— هل تستطيع حقيقة أن تشفيه ؟

قلت :

— سأحاول ..

قالت :

— عدلى أن تحاول أكثر ..

قلت وأنا ابتسم فى اشفاق :

— أعدك ..

وقامت من جانبى ، وقوامها الرائع .. قوام التاسعة عشرة .. ملتف فى قطعة القماش يتحرك نحو الباب ..

وبعد قليل عاد الزعيم الى القاعة .. طويلا .. مهيبا .. رافع الرأس .. متجهم الوجه .

وأطل سليم برأسه من الباب الآخر ، وعند ما رأى أن بيندا قد انصرفت ، هم بالدخول .. ولكنى قلت له بالفرنسية ، حتى يفهمنى الزعيم :

— أرجوك يا سليم .. انتظرنى فى الخارج .

ونظر الى سليم فى ضيق ، ثم نظر الى الزعيم .. وخرج وهو يضرب الأرض بقدميه فى غيظ :

وملأ الزعيم صدره بأنفاسه ثم قال وهو لا ينظر الى وجهى :

— ماذا قالت لك بيندا .. لقد تركتك وذهبت تبكى فى حجرتها ..

قلت فى صوت هادىء ، كأنها لم تقل لى شيئا مثيرا :

— قالت لى انها تزوجت سامى ..

ورفع الى وجهه بغتة ، وبياض عينيه يضىء وسط سواد وجهه ، فيبدوان كأنهما مصباحان قويان معلقان فى الليل .. ثم عاد وأطفأ عينيه .. وأدار وجهه عنى ، وقال وهو يتنهد :

— هل قالت لك ذلك ؟

قلت وبين شفتى ابتسامة هادئة :

— وقالت لى انك عارضت بشدة فى هذا الزواج ..

وهز رأسه موافقا ، وتمتم :

— نعم عارضت ..

قلت :

— لماذا ..

قال فى حدة غاضبة :

— لأنى لا أوافق على أن تتزوج احدى بنات القبيلة من أبيض ..

قلت :

— ولكنى لاحظت أنك تحب سامى ..

قال وهو يهز رأسه :

— نعم .. أحبه .. أحبه كما أحب ابنى .

ثم استطرد فى صوت مرتفع :

— ولكن هذا لا يكفى لأوافق على زواجه من ابنتى .. بل انى عارضت من أجل سامى أيضا ..

قلت :

— ان هناك زيجات مختلطة سعيدة ..

قال :

— مستحيل .. انها كلها زيجات شقية .. والأبناء الذين

يولدون من هذا الزواج كلهم أشقياء .. انى لا أريد أن يكون حفيدى ماتيس ..

قلت :

— ولكنك عدت ووافقت على هذا الزواج ..

قال فى أسى :

— نعم .. وافقت ..

قلت :

— لماذا ؟

قال وهو يزفر أنفاسه كأنه ضاق بالتحقيق معه :

— لأنى خشيت أن تفعل ابنتى مثل ما فعلت .. و ..

وتوقف عن الكلام فجأة ..

وانتظرت أن يتم حديثه ، ولكنه لم يتمه .. أطبق شفتيه ، وظل صامتا ينظر بين قدميه .

قلت أتعجله :

— مثل ما فعلت من ؟

وهب واقفا وقال فى عصبية :

— لن أقول شيئا .. آسف .. لن أستطيع مساعدتك ..

قلت :

— من أجل سامى ..

قال :

— ولا من أجل سامى ..

قلت :

— انه ليس سامى وحده .. ان معه ابنتك بيندا .. ويوم يشفىَ سامى ستر تاح بيندا ..

قال وهو يدير ظهره لى ووجهه فى الحائط :

— ومن أدرانى أنه سيشفى ؟

قلت :

— أؤكد لك أن كثيرا من الحالات المشابهة استطعت شفاءها .. انك لا تعرفنى .. ولكنى معروف فى كثير من الدوائر العالمية . وأقول لك ذلك بلا غرور .. انما لأنى أريد أن أساعد سامى .. لقد أحببته أنا أيضا ..

وظل الزعيم صامتا وهو يدير ظهره لى ..

ثم خرج من باب الكوخ ، ورفع رأسه الى السماء .. ونظر فيها مدة طويلة .. ثم عاد الى ، وقال فى صوت أجش :

— عد الى فى المساء ، اذا أبرقت السماء ..

قلت :

— لماذا ، عند ما تبرق السماء ؟

قال :

— لأنى مرتبط بعهد ، لا تستطيع أن تحلنى منه ، الا السماء ..

قلت :

— واذا لم تبرق السماء ؟

قال :

— لا تعد ..

قلت :

— انى لا أستطيع أن أفهم علاقة البرق بموضوعنا ..

والتفت الى غاضبا وقال فى حدة :

— هناك أشياء كثيرة لن تفهمها .. افعل كما قلت لك !

ثم هدأ قليلا واستطرد يعتذر عن حدته :

— آسف .. انى مرتبك ..

ثم مد يده يصافحنى مودعا ..

وقلت :

— الى اللقاء هذا المساء ..

قال :

— اذا أبرقت السماء ..

وهززت رأسى مستسلما ، وخرجت ، وتأبطت ذراع سليم ، أسحبه نحو العربة ..

وقال سليم وهو يهرول ليلحق بخطواتى السريعة العصبية :

— ماذا عرفت ؟

قلت وأنا أجلس بجانبه فى السيارة :

— لا تسألنى .. لن أقول لك شيئا الآن ..

وكنت مصمما فعلا على ألا أقول له شيئا ، حتى لا ينقل

ما يسمعه مني الى سامي ، فيفسد خطتي .. أو يثور ويعود الى الكاباكا ثائرا ليكتب قصة زواج سامي من ابنته .. فأفقد ثقة الكاباكا ..

وسكت سليم احتراما لارادتي ..

ثم قلت له وأنا تائه في أفكاري :

— ماذا يعني البرق بالنسبة لهذه القبيلة ؟

قال :

— انهم يؤمنون بالظواهر الطبيعية ، وأهمها البرق !

ورفعت رأسي الى السماء ..

ان السماء صافية .. ليس فيها قطعة سحاب واحدة .. والجو حار .. وليس هناك ما يبشر بالمطر ..

يبدو أن السماء لن تبرق هذه الليلة ..

— ٧ —

أوصلني سليم بسيارته حتى باب الفندق ، وقلت له وأنا أهم بالنزول :

— أرجو أن تمر على فى الساعة الثـامنة ، أو اذا أمطرت السماء قبل ذلك ..

ونظر الى سـليم فى دهشة وقال وعلامة استفهام كبيرة مرسومة على وجهه :

— لماذا .. ماذا يعنى المطر بالنسبة لنا ؟

قلت وأنا أنزل من السيارة بسرعة :

— ستعرف كل شيء .. ليس الآن !

وتركته دون أن أنتظر مزيدا من أسئلته والحاحه ، ودخلت الفندق .. وقال لى البواب ان سامية مرت على فى الصباح ، ولم تجدنى .. وانتظرتنى طويلا ، ثم انصرفت .. وقال انه رآها تبكى بعد أن طال انتظارها .. ولم أهتم .. فقد كنت أعلم سبب بكائها .. انها عند ما جاءت ولم تجدنى ، اعتقدت أنى سافرت الى لبنان دون أن أصحبها معى ..

وصعدت الى غرفتى بعد أن نبهت على البواب بألا يسمح لأحد بمقابلتى الا لسليم ..



ولم أكن تعبا .. ولكنى كنت فى حاجة الى تركيز ذهنى فى هذه المعلومات التى سمعتها من بيندا ، ولم يكن أهم ما سمعته منها أنها تزوجت سامى ، بل كان الأهم هو ما قالته عن سيطرة شخصيته الزنجية عليه بمجرد دخوله القرية ، لدرجة أنه ينسى الأيام التى قضاها بعيدا عن القرية خاضعا لشخصية الرجل الابيض .. ينسى الفاصل بين الشخصيتين ، حتى لو استمر هذا الفصل أسبوعين أو ثلاثة .. ويعود الى القرية كأنه لم يتركها أبدا .. كأن الأيام لم تمر .. ويبدأ حياته فيها من نفس اللحظة التى تركها فيها .. فاذا كانت زوجته قد سألته قبل اختفائه : «ازاى صحتك» عاد بعد ثلاثة أسابيع وقال لها : «الله يسلمك» .. كأنه سمع سؤالها فى نفس اللحظة التى عاد فيها ..

انها حالة خطيرة ..

حالة مركبة ..

ولم يكن ما يحيرنى فيها خطورتها ،بل كان ما يحيرنى هو طريقة علاجها وهى بهذه الخطورة ، خصوصا وأن ليس لدى الوقت الكافى لاتباع الطرق العادية فى العلاج التى قد تستغرق شهورا طويلة ..

وخيل الى أن السر الذى يحتفظ به الكاباكا ، قد يعيننى على تحديد طريقة العلاج ..

بل الواقع أنه لم يعد لى أمل فى اكتشاف طريقة العلاج الا فيما يمكن أن يقوله لى الكاباكا ..

ولكن الكاباكا ينتظر أن تبرق السماء حتى تحله من عهد قطعه على نفسه ..

وخرجت الى شرفة غرفتي ، أتطلع الى السماء ..

لا أمل ..

السماء صافية كاللبن ..

ليس فيها قطعة سحاب .. والهواء راكد ثقيل .. والطبيعة كلها صامتة ، كأنها نامت تحت تأثير هذا الجو الحار ..

وقضيت الوقت .. أسـجل مذكراتي .. وأحاول أن أنام حينا .. ثم اخرج الى الشرفة لعل شيئا حدث في السماء ..

ولم يحدث شيء ..

وفي الساعة السابعة والنصف نزلت الى حـديقة الفندق أنتظر سليم .. وقال لي البواب ان سامي مر علي ، وأنه أخبره باني نائم ، وأني طلبت ألا يزعجني أحد ..

وحمدت الله لأني لم أقابل سامي .. فلم أكن أريد أن أقابله قبل أن أجمع كل المعلومات التي تعينني على حالته ، حتى أفاجئه بها في أول مقابلة لنا ..

وجلست في الحديقة أتناول قدحا من الشاي .. وهواء رقيق بدأ يخفف من حرارة الجو ، ويهز أغصان الأشجار ..

وتلمست الهواء بوجهي ، وأنا أتساءل :

هل يمكن أن يكون هذا مقدمة لهطول المطر ..

من يدري ؟

وجاء سليم ، وسألته بلهفة :

— هل تعتقد أنه يمكن أن تمطر السماء هذه الليلة ؟

ورفع سليم أنفه الى السماء ، كأنه يشمها ، ثم قال :

— ربمــا .. كل شيء يمكن أن يحدث .. ان الطبيعــة هنا كالأهالى أنفسهم .. لا يمكن أن تفهمها .. وتصرفاتها تلقــائية مفاجئة .. ليس لها سبب .. تفرح فجأة .. وتبكى فجأة .. وتنام فجأة ..

ثم نظر الى واستطرد وفى عينيه نظرة توسل :

— ألا تقول لى لماذا تنتظر المطر والبرق ؟

قلت :

— ليس الآن ..

قال :

— هل للمطر والبرق علاقة بحالة أخى سامى ؟

قلت :

— نعم ..

قال وهو يبتسم فى استخفاف :

— يبدو أنك أصبحت تؤمن بسحر الزنوج ..

وابتسمت ابتسامة سخيفة ، دون أن أرد عليه .. كنت قد أصبحت أنا نفسى فى حالة عصبية من طول انتظارى للمطر ..

وفجأة ..

سقطت قطرة ماء على كفى ..

لعلها بدأت تمطر ..

وكتمت فرحتى ، ولم أتحرك من مكانى ، كأنى خفت ان فرحت أو تحركت ، أن تعدل السماء عن رأيها ..
وسقطت قطرة أخرى فوق وجهى ..
وتلاحقت القطرات .. رذاذ خفيف من المطر .. وانتفضت واقفا وأنا أصيح :
— انها تمطر .. هيا بنا !
ونظر الى سليم كأنى مجنون ، ثم لحق بخطواتى السريعة نحو السيارة ..
وقلت له وأنا أركب بجانبه ، أطلعه على سر انتظارى للمطر ، لأريحه :
— لقد وعدنى الكاباكا أن يطلعنى على سر كبير ، اذا أحلته السماء من العهد الذى أخذه على نفسه .. وكانت علامة حله من عهده هى ظهور البرق ..
وتمتم سليم قائلا :
— انه أفاق ..
وقلت كأنى لم أسمعه :
— أظن أنها ما دامت قد أمطرت ، فلا بد أن يظهر البرق ..
قال وهو يهز كتفيه فى امتعاض :
— ربما ..
وصمتنا ونحن فى طريقنا الى الغابة ..
ولم تثر فى الغابة هذه المرة نفس الشعور الذى كنت أحس به كلما مررت بها .. لم أحس اطلاقا بأنى أمر فى غابة .. كان

كل احساسي وكل انتباهي ، وكل ترقبي ، محصورا بين شفتي الكاباكا .. والسر الكبير الذي يحتفظ به بينهما ..

وعند ما اقتربنا من القـــرية بدأت أسمع صـــوت قرعات طبول ..

لم تكن قرعات مرحة سريعة كالتي سمعتها في الليلة الأخرى . ولكنها كانت قرعات بطيئة .. ضخمة .. رهيبة .. تهز الأرض وتهز السماء ..

واقتربنا أكثر .. ودقات الطبـــل تزداد قوة ، وضخامة ، ورهبة ، وتخلع قلبي ..

ثم بدأت أسمع من خلال دقات الطبل ، أصواتا حزينة ، مهمهمه .. تعلو حينا فتبـــدو كالصراخ .. ثم تعود تهمهم في حزن ..

وتركنا السيارة على جانب الطريق .. ونزلنا ورذاذ المطر يتساقط علينا في رفق .. وسرنا بين أشجار الغـــابة .. كنت أنا الذي أتقدم سليم هذه المرة .. ثم اختبأت وراء أغصان شجرة صغيرة تطل على ساحة القرية .. وســـليم بجانبي .. وعيناي تخترقان الظلام ..

كانت القرية غارقة في الليل .. ليس هناك سوى هذا الضوء الأصـــفر الخافت ، ينطلق من مصباح صـــغير موضـــوع على الأرض ، بجانب قارع الطبل ..

والأهالي يقفون في دائرة كبيرة وقد اختفت وجوههم بين طيات الظلام .. وقارع الطبل يرفع ذراعيه ويهوى بهما في قوة ،

كأنه يصارع شبحا ، وقطرات المطر تلمع فوق جسده العارى الضخم ، وتبدو فى ضوء المصباح الخافت كحبات من الماس الأصفر .. والكاباكا منتصب بقامته المديدة وسط الساحة ، وقد وضع فوق جسده جلبابا فضفاضا ، ناصع البياض ،يبدو وسط الليل كشعاع الفجر .. ورذاذ المطر ينسكب فوقه فى رفق .. ويرفع ذراعيه الى السماء ، ويتمتم بكلمات لا أفهمها .. وصوته عميق قوى ، تستطيع أن تميزه من خلال قرعات الطبل .. ثم يسكت ويخفض ذراعيه ، فيتمايل أهالى القرية وهم يترنمون بلحن غريب حزين .. ثم يعود الكاباكا ويرفع ذراعيه الى السماء ، ويتمتم بكلمات أخرى .. فيصرخ الأهالى صرخات حادة ، وهم يرفعون أذرعتهم ويتمايلون بها .. كأنهم يولولون .. كأنهم يستنجدون بالسماء ..

ودقات الطبل لا تتوقف ..

دقات ضخمة هائلة .. تملأ الأرض والسماء .. وأحس بها فوق رأسى !

وقميصى قد ابتل والتصق بلحمى .. وقدماى تغوصان فى الطين .. ولكنى لا أحس بالبلل ، ولا بالطين .. ورأسى تحت قبعتى الكبيرة ، ساخن ، كل شعرة فيه تلتهب باللهفة والرهبة .

والهواء بدأ يهب فى عنف .. والأشجار من حولنا بدأت تتمايل فى وشوشة صاخبة كأنها مذعورة .. وجلباب الكاباكا يطير مع الهواء ، فيبدو كأنه وشاح ملاك .. وقبعتى تكاد تطير من فوق رأسى .

وفجأة ..
صرخت السماء ..
أرعدت ..
ومع الرعد ، انطلق ضوء البرق ..
ظهر نور الله ..
وسكتت قرعات الطبل .. وسكت الأهالي .. ورفع الكاباكا ذراعيه الى السماء صامتا .. وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه البيض ..
وهطل المطر ..
مطر عنيف .. كأن المحيط انتقل فوق رءوسنا وبدأ يفرغ مياهه علينا ..
وفجأة أيضا انتهت فترة الصمت .. وبدأت الطبول تدق من جديد .. ليست هذه الدقات البطيئة الرهيبة .. ولكن دقات سريعة مرحة .. وانطلق الأهالي يقفزون في الهواء وهم يصرخون كأنهم يزغردون ..
والرعد يعود ويدوى ، فيخلع أذني ..
والبرق يعود ويبرق ، فيخلع عيني ..
وقمت من وراء الشجرة التي أختبيء فيها .. وتقدمت الى الساحة ، أخوض في الطين وبجانبي سليم ..
ولم يتوقف أهالي القرية عن الرقص عند ما رأونا ، ولم تسكت الطبول .. ومد الكاباكا يده يصافحني ، ووجهه يبدو من خلال خيوط المطر ، هادئا مبتسما .. وجه كاهن انتهى من

صلاته ، واستجاب الله لدعائه .. ثم صافح سليم .. وتقدمنا نحو الـكوخ الـكبير الذى يتوسط صـف البيوت التى تحيط بالساحة .

وأحسست بمجرد أن دخلت الـكوخ كأنى وصـلت الى الشاطىء بعد أن سبحت طويلا فى مياه المحيط .. المحيط الذى ينسكب فوق رءوسنا

وتركنا الزعيم بمجرد دخولنا ، قائلا وابتسامته تبرق فوق أسنانه البيض :

— عن اذنكم ..

وخرج من الباب الجانبى ..

وخلعت قبعتى ، وجلست على المصطبة المفروشة بحصير من ألياف الشجر المجدول ، وبدأت أخلع حذائى وجوربى اللذين بللهما المطر .. وجلس سـليم بجانبى يخلع هو أيضا حـذاءه وجوربه .. ورعشة خفيفة تسرى فى عروقى ، حتى خلت أنى على وشك أن أمرض ..

وعاد الزعيم بعد قليل ، وهو يرتدى جلبابا جديدا مخططا بألوان زاهية ، ويحمل بين يديه جلبابين أبيضين ، أعطى لكل منا جلبابا ، وهو يقول مبتسما :

— أظن أنكما فى حاجة الى تغيير ثيابكما .

وكنا فى حاجة فعلا الى تغيير ثيابنا .. وخلعت قميصى المبلول بسرعة ، وارتديت الجلباب الفضفاض .. ثم خلعت بنطلونى من تحت الجلباب بعد أن أفرغت جيوبه .. وفعل سليم نفس الشىء

وهو ينظر الى الكاباكا فى دهشة وحذر ، كأنه لا يصدق أن يلقى منه هذه المعاملة الطيبة ..

وحمل الكاباكا ثيابنا المبتلة الى داخل البيت ، قائلا :

— سنجففها بجانب النار ..

ثم عاد بسرعة ، وجلس على المقعد الكبير وأشار لنا بأن نجلس على المقعدين الآخرين المصنوعين من الجريد .. وتنهد فى راحة كأنه يفصل بين مهمة شاقة انتهى منها ، ومهمة أخرى يبدأ فيها .. ثم حنى رأسه وركزها فوق قبضـــة يده برهة طويلة ، وعند ما عاد ورفعها ، كان وجهه جادا ، متجهما ، ليس فيه أثر لابتسامة ..

وقال فى صوت خفيض :

— اننا فى انتظار ابنتى بيندا .. ستأتى حالا ..

وجلسنا صامتين .. وعاد الكاباكا ومال برأسه فوق قبضة يده ..

وبعد قليل دخلت بيندا حافية القدمين ، ملتفة فى قطعة من القماش حمراء اللون ترتفع حتى تغطى نهديها ، وتترك كتفيها عاريتين .. وشعرها الأسود الناعم مسدل على ظهرها كأنها تجر وراءها قطعة من الليل ..

وهزت بيندا رأسها الصــغير تحيينا دون أن تصافحنا ، وهمست باللغة الفرنسية التى تبدو وكأن انسانا آخر يتكلم من حلقها .. انسان أبيض :

— مساء الخير ..

ثم جلست فوق الوسادة الموضوعة فوق الصندوق الخشبي الكبير .. والمصباح الصغير يلقى ضوءه الباهت على ثوبها الأحمر ، فتبدو كأنها لوحة فنية رسمها فنان ..

ورفع الكاباكا رأسه ، وقال في صوت خفيض عميق ، وخطوط كثيرة تشق جبينه :

ــ لقد أحلتني السماء من عهد احتفظت به ثلاثين عاما .. الآن أستطيع أن أقول كل شيء .. بأمر السماء ..

وسكت وهو يتنهد ، ونظرة حزينة تملأ عينيه ..

وقلت وأنا أمد رقبتي نحوه لألتقط كل لفظ من ألفاظه :

ــ هل تريد أن يبقى سليم معنا ؟!

وكنت أعتقد أني في حاجة الى توجيه هذا السؤال ، حتى أعفيه من الحرج اذا كان محرجا في التخلص من سليم ، وحتى أكتسب مزيدا من ثقته ، اذا كان في قلبه بقية من شك في أني أعمل في خدمة سليم لا في خدمة الطب ..

وأجاب الكاباكا في هدوء :

ــ لا .. ليبق سليم . آن الأوان ليسمع سليم القصة .. كل ما أرجوه ألا يكتفى بسماعها ، بل يحاول أن يفهمها ..

ثم سكت ..

وسليم ينظر اليه بعينين جاحظتين ، فيهما نوع من التحدى والاستعلاء ..

وطالت فترة سكوت الكاباكا وكلنا ننظر اليه .. بعيوننا .. برءوسنا .. بقلوبنا .. بلهفتنا ..

وأخيرا مال الكاباكا بظهره على مسند مقعده ، وفرد ذراعيه فوق ساقيه ، وبدأ يتكلم دون أن ينظر الى أحد منا .. يتكلم فى بلده ، كأنه يشد الكلمات من بعيد .. وقال وعيناه مركزتان فى سقف الكوخ :

ــ كان فى قريتنا فتاة جميلة .. أجمل بنات القبيلة .. بل أجمل بنات مالى .. وكانت طيبة .. رقيقة .. ذكية .. حلم كل شباب القبيلة .. حلم كل شباب السودان .. وكان الزعيم يدللها كثيرا .. بل كان يشركها معــه فى رأيه .. ولــكن الدلال لم يفسدها .. لم تغتر .. ظلت طيبة .. رقيقة ..

وتنهد الكاباكا فى أسى ، كأنه يطرد دموعا تتجمع فى صدره .. واستطرد قائلا :

ــ وذهبت الفتاة الجميلة ، يوما الى المدينة الكبيرة .. الى باماكو .. برفقة بعض بنات القبيلة .. ولم تكن تذهب الى المدينة الا نادرا .. مرة ، أو مرتين فى العام لتشترى الاقمشة والحلى .. وعادت من المدينة دون ان يبدو عليها شىء .. ربما بدت يومها أكثر مرحا .. وبعد أسبوع ، ذهبت الى المدينة مرة أخرى ، وعادت فى المساء .. ثم ذهبت الى المدينة فى الأسبوع التالى .. ثم أصبحت تذهب كل أسبوع .. واحيانا مرتين فى الأسبوع .. وبدأ بنات القبيلة وشبانها يتهامسون .. وبدأت الاشاعات تحيط بها .. وقد بلغت هذه الاشاعات أذنى الزعيم ، ولكنه سكت عليها .. أو ربما لم يصدقها .. لم يكن أحد يصــدق أن الفتاة الجميلة ، الطيبة ، الذكية ، يمكن أن ترتكب خطأ ..

وسكت الكاباكا برهة ومال برأسه على صدره ، ثم عاد ورفعها وعيناه أشد حزنا ، والخطوط العميقة قد ازدادت فوق جبينه ، واستطرد قائلا فى صوت أكثر خفوتا :

ــ وصحا الزعيم يوما من نومه ، وسأل عن الفتاة الجميلة فلم يجدها فى القرية .. ذهبت الى المدينـــة .. وثار الزعيم .. واستدعى بعض صاحباتها يسألهن عن سرها .. انهن لا يعرفن شيئا .. وهى لا تتحـــدث اليهن عن سرها .. وكلما عادت من المدينة ظلت معتكفة عنهن الى أن تذهب الى المدينة مرة أخرى .. ولكن واحدة من صاحباتها قالت للزعيم انها لاحظت فى المرة الأولى التى ذهبت معها الى المدينة ، أنها وقفت طويلا تتحدث الى شاب أبيض .. وكانت عينـــاها وهى تحادثه ، تلمعـــان ، وابتسامتها تملأ وجهها .. واشتدت ثورة الزعيم .. وأيقن أن الفتـــاة الجميلة على علاقة برجل أبيض .. وانتظـــرها الى أن عادت فى المساء .. وسألها عن سرها .. فرفضت أن تعترف .. كانت تعلم أن الزعيم لن يتسامح فى خطيئتها الكبرى .. كانت تعلم أن القرية رغم أنها أقرب القرى الى المدينة الكبيرة ، الا أنها أشدها محافظة على التقاليد الوطنية .. لذلك خافت أن تعترف بسرها .. ولكن الزعيم قسا عليها .. لأول مرة يقسو عليها ، وجرها الى ساحة القرية ، ووسط كل الشبان والبنات ، ضربها .. ضربها كثيرا .. لأول مرة يضربها ، وظل يضربها حتى صرخت قائلة : نعم .. انه أبيض .. وأحبه ..

وسكت الكاباكا ، وشفتاه لا تزالان ترتعشان ببقايا كلماته.

وأدرت رأسي الى بيندا .. انها جالسة ملتفة فى الوشاح الأحمر .. ووجهها غارق فى الدموع .. دموع صامتة ..

وتنهد الكاباكا واستطرد ، وهو حريص على ألا ينظر لواحد منا ، كأنه يروى القصة لنفسه :

— وحرم الزعيم على الفتاة الجميلة الذهاب الى المدينة .. وخاصمها كل أهل القرية .. قاطعوها .. كانت كلما مرت بواحد منهم أدار لها ظهره .. ولكنها لم تأبه بهم .. وتحدتهم .. واستمدت من كبريائها المجروحة قوة أكبر للعناد .. وبعد أيام استطاعت أن تترك القرية دون أن يراها أحد .. وذهبت الى المدينة .. وعادت قبل المساء وهى تجر وراءها الشاب الأبيض الذى تحبه .. كان شابا طويلا ، قويا واسع العينين .. يبدو من ملبسه أنه مهاجر فقير .. وكان يسير وراءها وهو خائف .. يرتعد .. ينظر الينا كأنه يتوسل .. كأنه على وشك البكاء .. هذا الرعديد ، الجبان .. ولكنها كانت تشده من يده .. الى أن دخلت به الى الزعيم وصاحت فى جرأة وتحد .. تريد أن تتزوج .. وزأر الزعيم كالأسد .. وقفز على الشاب الأبيض كالنمر .. وأخذ يدفعه خارج الكوخ .. ثم خارج القرية .. وهو يسبه .. يلعنه .. ويلعن كل البيض .. والشاب الأبيض يهرول أمامه .. وهو يتوسل .. ويصرخ .. هذا الجبان الرعديد .. الى أن خرج من القرية .. وخرج كل شباب القرية يسيرون وراءه صامتين .. فقط ينظرون اليه بعيونهم الغاضبة .. وهو يهرول أمامهم .. ثم يعود ويتلفت اليهم متوسلا أن يرحموه .. ولكنهم لايجيبون

.. لا يتكلم أحد منهم .. كلمة تخرج من شفاهنا خسارة فيه .. ويهرول .. ويجرى .. ونحن دائما وراءه .. الى أن وصل الى مدخل المدينة ..

ومسح الزعيم علامات الغضب والغل التى بدت على وجهه وهو يتحدث عن هذا الشاب الأبيض .. ثم قال :

— وأمر الزعيم بسجن الفتاة الجميلة فى أحد الأكواخ .. عاشت أياما طويلة لا تخرج من سجنها .. وكان الزعيم يذهب اليها أحيانا ويحاول أن يقنعها بأن تقاوم حبها .. ولكن .. لا .. انها عنيدة فى الحب .. لا تحاول أبدا أن تبرأ منه .. وبدت عليها تصرفات غريبة .. كانت تقضى أياما لا تتكلم .. ولا تأكل .. ولا تشرب .. كأنها قررت أن تموت .. ثم فجأة تصحو يوما وتبدأ فى الصراخ .. تصرخ طول اليوم .. وتأكل بشراهة .. كأنها قررت أن تحتفظ بحياتها من أجل حبها .. ويدخل اليها أحد الشبان يوما لتحادثه فى هدوء ، ويبدو عليها أنها نسيت حبها .. ونسيت عذابها .. ويدخل عليها نفس الشاب فى يوم آخر ، فتهب صارخة فيه .. وتهجم عليه .. تمزق وجهه بأظفارها .. وقلنا عنها انها جنت .. أصبحت الفتاة الجميلة ، الطيبة ، الذكية .. مجنونة ..

وسكت الكاباكا ليبتلع ريقه .. وارتفع نشيج بيندا الجالسة فى ركن الكوخ ملتفة بالوشاح الأحمر .. والتفتنا اليها جميعا ، دون أن يتكلم أحد منا أو يتحرك من مكانه .. ثم عدنا برءوسنا الى شفتى الكاباكا ..

واستطرد الكاباكا قائلا وهو يمسح دمعة كبيرة سقطت من عينيه :

واستطاعت المجنونة أن تفر من سجنها .. ثقبت جدار الكوخ بأظافرها .. وذهبت .. ذهبت على ألا تعود .. وعلمنا بعد شهور طويلة أنها تسكن فى كوخ على الشاطىء الآخر من النهر .. عند سفح كوبالا .. فى مكان خفى وسط الغابة .. وعلمنا أيضا أنها تزوجت حبيبها الأبيض ، على الطريقة الاسلامية .. ورغم أن زوجها أصبح غنيا بعد ذلك وجمع كثير من الأموال .. الا أنها ظلت تسكن فى هذا الكوخ .. وهو يسكن المدينة .. ويتردد عليها سرا .. كان يخجل من أن يعرف أحد أن زوجته زنجية ..

وقال سليم كأنه يريد أن يتأكد :

ــ تقول انها تزوجت على الطريقة الاسلامية ؟

ونظر اليه الكاباكا نظرة هائلة ، أخرسته .. ثم عاد يقول :

ــ وأصدر الزعيم أمره بتبرؤ القبيلة منها .. لم تعد احدى بناتنا .. لم يعد من حقها العودة الى القرية .. ولم يعد واحد منا يستطيع أن يبحث عنها ، أو يذهب اليها .. ولكن الزعيم نفسه لم يتحمل الأمر الذى أصدره .. أصيب بالشلل .. مات جسده .. ومات لسانه .. لم يعد يتحرك ، ولا يتكلم .. لم يعد فيه الا عينان يبكى بهما أحيانا ، ويغضب بهما أحيانا .. وكان من بين شبان القرية من لا يستطيع أن ينسى الفتاة الجميلة ، الطيبة ، الذكية .. أجمل البنات ، وأطيبهن ، وأذكاهن .. فكان

يبحث دائما عن أخبارها .. وقد مر عامان .. ثم علمنا أنها ولدت .. وضعت طفلا لونه أبيض يميل الى السمرة ..

وبعد ان وضعت الطفل بأسبوع واحد ، جاء زوجها الابيض وأخذ الطفل فى غفلة منها .. واختفى هو والطفل .. سافر به الى وطنه الأصلى .. وجنت الفتاة الجميلة .. انتظرت الزوج والابن أياما .. ثم خرجت تبحث عنهما فى المدينة الكبيرة .. وهى مجنونة .. كل ما فيها يدل على الجنون .. والناس يضحكون عليها .. ويطردونها من أمامهم .. ويضربونها اذا ألحت فى السؤال .. وقبض عليها البوليس مرات ، وكانت تروى لهم قصتها فلا يصدقها أحد .. انها فقط مجنونة .. المسكينة .. وكان زعيم القبيلة قد مات فى هذه الفترة ، وتولى غيره الزعامة .. وكان الزعيم الجديد يحب الفتاة الجميلة .. يحبها منذ كانت طفلة .. ربما احبها وهى لا تزال فى بطن أمها .. فلم يطق أن يراها مشردة فى شوارع المدينة .. تبيت على الأرصفة .. وتأكل البقايا التى تلقى فى الشارع .. فأصدر أمره بالعفو عنها .. وأرسل من عاد بها الى القرية .. وبدأ يعالجها .. ويخفف من جنونها .. وبعد جهد كبير هدأت .. وكان هدوءا غريبا .. ربما كان نوعا آخر من الجنون .. ولكنها لم تنس أبدا ابنها .. ابنها الذى خطف منها .. ربما برئت من حب الزوج .. الزوج النذل الجبان .. ورغم ذلك فهو لم يكن أسوأ الأزواج البيض .. انهم كلهم يعتبرون الزواج من بناتنا مجرد متعة .. مجرد لهو .. مجرد تبديد لأوقات الفراغ .. لا أحد منهم يحترم هذا الزواج ..

لا أحد منهم يعترف بهذا الزواج بينه وبين نفسه .. انها مجرد متعة عابرة .. ثم يختفى .. حتى لو لم يسافر الى وطنه .. يكفى أن يخرج ولا يعود .. انهم يعتبرون بناتنـا حيوانات .. وهم لا يحترمون زواجهم من الحيوانات ..

وزفر الكاباكا أنفاسا من السخط .. وأسقطت بيندا رأسها بين يديها تخفى دموعهـا .. وابتسم سليم ابتسـامة صـغيرة ساخرة ..

وعاد الكاباكا يقول :

ــ وبعد عام .. جاءت الفتاة الجميلة .. واسمحوا لى أن أستمر فى تسميتها بالفتاة الجميلة ، فانى لا أتصورها الا منذ كانت فتاة جميلة .. جاءت الى الزعيم الجديد وقالت له ان ابنها قد عاد الى باماكو ..

وسألها الزعيم فى دهشة :

ــ كيف عرفت ؟

قالت ونظرتها ثابتة :

ــ لا أدرى .. ولكنى متأكدة أنه عاد الى باماكو .. قلبى يقول لى انه عاد .. وأنا أصدق قلبى ..

وذهب الزعيم بنفسه الى المـدينة ليتأكد مما يقوله قلب الفتاة الجميلة .. وكان قلبها صادقا .. لقد عاد النذل الأبيض الى باماكو ، ومعه زوجة من بنى وطنه .. زوجة بيضاء .. ومعهما طفل .. وقال النذل لأهـل باماكو ان الطفل طفله من زوجته البيضاء .. وأنقص من عمره عدة شهور حتى لا يسأله أحد ،

كيف يكون ابنك من زوجتك ، وهو يبدو كأنه اكتمل عام من عمره ، وأنت لم يمر على زواجك أكثر من عام ؟ وكان لون الطفل يميل الى الاسمرار .

جمع الزعيم كل هذه المعلومات ، ثم عاد الى قريتـه وأبلغ الفتاة الجميلة بكل ما عرفه .. لم يخفه عنها شيئا .. ثم سألها :

— ألا زلت تريدين زوجك ..

قالت وعيناها تلمعان كالبرق الغاضب :

— لا .. لا أريده .. أمقته .. أحتقره ..

وقال الزعيم :

— وتريدين الطفل ؟

قالت وقلب الأم فى عينيها :

— نعم انه طفلى ..

قال :

— أتريدينه أن ينشأ فى قريتنا .. وأبوه أبيض ..

قالت :

— نعم .. انه ابنى ..

قال :

— أليس من الخير أن يبقى مع أبيه ، ليجد حياة أفضل ، ليتعلم .. ليصبح طبيبا .. ان المستقبل هناك أبيض ..

وسكتت الأم طويلا ثم قالت والدموع فى عينيها :

— ليبق مع أبيه . ولكن يجب أن أراه .. الى أمه ..

وقال الزعيم :

— أتريدين أن يعرف الناس انك أمه .. ويعرف الناس أنه ماتيس ، من أم زنجيـة وأب أبيض .. ألا ترين كيف يعيش الماتيس .. بلا أصل .. بل شعب .. بلا شخصية .. ألا تذكرين كيف كنت أنت نفسك تحتقرين الماتيس ..

وسكتت الأم الجميلة .. اكتفت بدموعها .. ثم حملت الدموع وانزوت بها فى كوخها .. ولم تعد تطالب بابنها .. ضحت بكل حقها فيه من أجله .. ضحت بأمومتها .. بقلبهـا .. وقبلت أن تقسم بالاله الأعظم بألا تبوح بسر ابنها .. ولكنها ظلت تصر على أن تراه .. فكانت تذهب الى المدينـة .. وتطوف ببيت النذل الأبيض ، الى أن ترى ابنها من بعيـد .. وعند ما كبر الابن وأصبح صبيا كانت تذهب الى حيث يلعب مع زملائه ، وتحمل له الهدايا ، وتجلس معه وتحادثه .. وتعود فرحة .. وكان أكثر ما يفرحها أن ترى ابنها يلعب مع الأطفال الزنوج .. انها تحس أنها لا تزال تعيش فيه .. تحس أن دماءها تجرى فى عروقه .. تحس أنه سيبحث عنهـا يوما ما .. الى أن اكتشف النذل الأبيض أنها تذهب وتجلس مع ابنها ، فأرسل اليها أحد موظفيه يهـددها .. ولم تعد تذهب الى ابنهـا ، لا خوفا من التهديد ، ولكن خوفا عليه ..

وسكتت الكاياكا ..

وأجهشت بيندا بالبكاء .. ورأسها منكس فوق صدرها .. وشعرها مسدل فوق وجهها

ونظرت الى سليم كأنى أذكره بهذه المرأة التى قال لى انها كانت تذهب الى سامى فى صغره ، وتروى له أساطير الزنوج .. وكان سليم شارد النظرات .. متهدج الأنفاس .. يضغط احدى يديه بالأخرى .. وينظر الى الكاباكا كأنه يقـاوم انفجارا فى صدره ..

واعتدل الكاباكا فى جلسته .. ورفع رأسه ينظر الى السقف كأنه يستلهم السماء .. ثم عاد وألقى برأسه فوق صدره ، وقال فى صوت محشرج :

— هذه الفتاة الجميلة ، هى أختى .. وهى أم سامى ..

وصرخت بيندا ، صرخة كبيرة .. ثم انتفضت ، وجرت نحو أبيها ، وألقت نفسها فوق صدره ، وارتفع نشيجها ..

ولف الكاباكا ذراعه حولها ، وبكى معها ..

وصاح سليم :

— هذا كذب ..

ونظر اليه الكاباكا نظرة قوية بخرت دموعه ، وصرخ فيه :

— اخرس ..

وانكمش سليم فى مقعده ، وتمتم فى جبن :

— أقصد أنه كلام يحتاج الى اثبات ..

وقال الكاباكا وبياض عينيه ينطلق كضوء البرق :

— الاثبات الوحيد ، هو انى أنا الذى أقول هذا الكلام ..

وظل مركزا عينيه على وجه سليم ، حتى أرخى سليم عينيه ،

ثم أدار رأسه الى ابنته ، واحتضنها فى حنان ، وأخذ يربت على ظهرها بكفه ، قائلا فى صوت تخنقه الدموع :

— أنت تعلمين الآن لماذا كنت أعارض فى زواجك من سامى .. ثم لماذا وافقت .. لعلك تصفحين عنى ..

وبقيت ساكتا الى أن هدأت الأنفاس من حولى قليلا ، ثم قلت فى لهجة الطبيب الهادئة ..

— وماذا جرى للفتاة الجميلة بعد ذلك ؟

وأزاح الكاباكا ابنته من فوق صدره ، وقال وهو يقوم واقفا :

— أتريد أن تراها ..

قلت فى دهشة :

— ألا تزال على قيد الحياة ..

قال :

— نعم .. تعال .. ستراها الآن !

ثم نظر الى سليم من فوق قامته الطويلة ، وقال فى تحد :

— تعال أنت أيضا يا سليم .. تعال لترى زوجة أبيك !

— ٨ —

.. وحمل الكاباكا المصباح الصغير ، وتقدمنا خارجا من الكوخ الى ساحة القرية .. وبيندا تسير بجانبه ودموعها فوق خديها .. ووقف سليم مترددا وعينـــاه جاحظتان زائغتـــان .. وجذبته من ذراعه جذبة خفيفة ، فمشى بجانبى صامتا ، وقد سقط رأسه من فوق عنقه وتدلى فوق صدره ..

وسرنا فى ساحة القـــرية بضع خطوات .. وكان المطـــر قد انقطع .. والطبول سكتت ، ولم يبق الا بضعة أفراد من الأهالى يتحركون فى الظلام كأنهم الأشباح ، وعيونهم البيضاء تبرق أمام وجوهنا كأنها تقوب فى الليل ..

ووقف الكاباكا أمام كوخ يبعد قليلا عن كوخه ، والتفت الينا صـــامتا .. ركز عينيه فوق وجه ســـليم ، ثم نقلهما الى وجهى .. ثم استدار لنا ، وأحنى رأسه ودخل الكوخ ..

ودخلنا وراءه ..

كان الكوخ خاويا الا من سرير من فروع الشجر ، مكوم عليه شىء لا أستطيع أن أتبينه ، رغم ضوء المصباح الذى يحمله

الكاباكا .. وبجانب السرير صندوق خشبى صغير ، مزين بالمسامير الملونة ..

ورفع الكاباكا المصباح فوق السرير ، وقال كأنه يبكى :

— هذه هى الفتاة الجميلة .. أجمل بنات السودان !

وصرخت بيندا :

— عمتى ..

ثم سقطت راكعة بجانب السرير ، ووضعت رأسها فوق صدر المرأة وأخذت تبكى ، وتتكلم بلغتها — لغة الولف — كلمات سريعة ، وبصوت حاد رفيع ، له نفس الرنة التى نسمعها فى صوت الندابات عندنا ..

وتقدمت الى السرير ..

كان فوقه كومة من العظام السوداء .. ووجه مكرمش ، ليس فيه قطعة تجت من التجاعيد .. خطوط كثيرة عميقة متقاطعة ، تكون وجه امرأة عجوز ..

واقترب سليم من السرير فى تردد ..

وألقى نظرة سريعة ، ثم تراجع وهو يشهق .. ولكنى أمسكت به وهمست فى أذنه :

— انظر اليها جيدا ..

وفتحت المرأة عينيها .. فبانت ملامحها أكثر .. ان فى عينيها طيبة وهدوءا .. وابتسمت .. ابتسامتها ، لا تزال حلوة تمرح فوق أسنانها البيضاء بين شفتين شققهما العمر والعذاب .. ومدت يدا مرتعشة من العظام السوداء وأخذت تمسح على شعر



بيندا .. وشفتاها تتحركان دون أن يخرج من بينهما صوت ..
واستطعت أن ألمح الشبه الكبير بينها وبين بيندا ..

وقال الكاباكا فى صوت مرتعش :

— انه ضيف من مصر ، جاء يسلم عليك ..

ورفعت المرأة عينيهـا الى ، وعادت شـفتاها المشققتان تتحركان فوق ابتسامتها ، دون أن يصدر من بينهما صوت ..

وقلت لها وأنا أحاول أن أبتسم :

— هذه مناسبة سعيدة .. لقد حدثني الكاباكا عنك كثيرا .
وهزت المرأة رأسها ، هزات متعبة ، ولكنها رشيقة كأنها لا تزال تحتفظ بأنوثتها ورقتها .. ثم أدارت عينيها حتى سقطتا على وجه سليم .. ونظرت اليه طويلا .. ثم شهقت شهقة حادة .. ومدت ذراعيها في الهواء كأنها تريد أن تصل اليه .. ولسانها المشلول يتحرك في فمها ويصدر عنه صوت كالخوار الرفيع .. ثم أسقطت ذراعيها .. وأخفت وجهها بكفيها ، وهي تهز رأسها فوق وسادتها هزات عنيفة ، وتموء كالقطط ..

وهمست في أذن الكاباكا :

— هذا يكفي ..

ونظر الكاباكا الى أخته نظرة حزينة مشفقة ، ثم استدار خارجا من الكوخ .. وخرجنا معه .. وتركنا بيندا تبكي بجانب كومة العظام السوداء .. وسليم بجانبي يهمس في صوت مخنوق :

— مستحيل .. مستحيل ..

وظل يردد كلمة « مستحيل » ، وصوته يرتفع شيئا فشيئا ، حتى عدنا الى كوخ الكاباكا .. فصرخ :

— مستحيل !

ونظر اليه الكاباكا نظرة هائلة جامدة ، وقال له في هدوء :

— ما هو هذا المستحيل ؟

وقال سليم وهو يرتعش ..

— انها ليست زوجة أبي .. لا أستطيع أن أصدق ..

وقال الكاباكا فى هدوء :

— صدق .. والنـذل الأبيض الذى حدثتك عنـه ، هو أبوك !

وقلت للكاباكا حتى أقطع هذا النقاش الحاد :

— أظن أن ثيابنا قد جفت ..

ونظر الكاباكا الى سليم فى ازدراء ، ثم قال لى :

— سأرى ..

ثم خرج من الباب الجانبى فى خطوات عصبية ..

وألقى سليم نفسه على مقعد ، وألقى رأسه بين يديه ، وهو يهمس كأنه يبكى :

— لابد أنى أحلم ..

وقلت له بصـوت جاد حتى أشـعره بأن هذا ليس وقت النواح :

— هل هى نفس المرأة ؟

ورفع رأسه الى وقال فى حدة :

— أى امرأة ؟

قلت :

— المرأة التى كانت تذهب الى أخيك سامى فى صغره وتروى له أساطير الزلوج ..

قال وهو يدير رأسه عنى :

— لا أدرى ..

قلت وكأنى أؤنبه :

— أرجوك أن تساعدنى .. تماسك ، حتى نستطيع أن نصل الى نتيجة ..

قال دون أن يرفع رأسه الى :

— أظن أنها هى ..

قلت :

— ألست متأكدا .. ؟

قال وهو يزفر أنفاسه :

— متأكد .. انها هى ..

ثم انطلق صارخا :

— ولكن هذا لا يعنى أنها زوجة أبى ..

ولم أرد عليه ..

جلست على مقعد وأخذت أراجع فى ذهنى حالة سامى النفسية .. ان حالته الآن واضحة بكل تفاصيلها ..

انه من أم زنجية وأب أبيض .. وقد سقطت هذه الحقيقة فى عقله الباطن ، نتيجة تجاهلها .. ثم بدأ الصراع بين عقله الباطن وعقله الواعى .. كل منهما يريد أن يسيطر عليه .. فاذا انتصر العقل الباطن أصبحت لسامى شخصية زنجية .. واذا انتصر العقل الواعى أصبحت له شخصية الرجل الأبيض .. والعقل الباطن يعلم أن أمه هى هذه المرأة التى كانت تذهب اليه فى صغره وتروى له أساطير الزنوج .. ولو استمرت هذه المرأة فى الذهاب اليه.فربما استطاع العقل الباطن بمرور الأيام أن يلتقى مع العقل الواعى حول حقيقة واحدة .. ولكن المرأة انقطعت عن

الذهاب اليه .. منعها أبوه .. فنسيها سامي .. وسقطت هي الأخرى في العقل الباطن مع أصله الزنجي.. الى أن قابل بيندا .. وكانت بيندا تشبه المرأة الأخرى .. تشبه أمه .. فأثارت رؤيتها عقله الباطن .. وحركته .. ونصرته على عقله الواعي .. فأصبحت تسيطر عليه شخصية الزنجي .. الى أن يهدأ العقل الباطن ، فيعود ويسيطر عليه عقله الواعي .. عقله الأبيض !

هذه هي حالة سامي باختصار ..

كيف أصل الى علاجها ؟

ان المتبع في هذه الحالات أن أعقد جلسات مع المريض أتركه فيها يتحدث عن نفسه ويحاول الغوص في عقله الباطن الى أن يكتشف سره بنفسه .. يكتشف عقدته ..

ولكن هذه الطريقة — كما قلت — تتطلب شهورا طويلة ، وأنا سأغادر باماكو بعد أيام ..

ليس أمامي الا الطريقة الأخرى في العلاج .. طريقة .. الصدمة العصبية !

فكيف أصدمه .. صدمة عنيفة تقفز بعقله الباطن الى مستوى عقله الواعي ..

وغرقت في أفكاري ..

ودخل الكاباكا يحمل ثيابنا وهو يقول :

— آسف .. ليس في الكوخ أحد الآن ليقوم بكيها .. كلهم نيام .. وبيندا لم تعد من عند عمتها ..

ورددت عليه بابتسامة صغيرة ..

وأخذنا أنا وسليم نبدل ثيابنا .. كل منا يخلع الجلباب الذى أعطاه لنا الزعيم ، ويرتدى قميصه وبنطلونه .. وكلنا صامتون..

ثم اقتربت من الكاباكا وقلت له بصوت خفيض :

— ألم ير سامى هذه السيدة من قبل .. أقصد السيدة أختك ..

قال وهو يهز رأسه :

— لا .. انه لا يعرف بوجودها .. ولا أظن أن أحدا حدثه عنها ..

مددت يدى اليه مصافحا وقلت :

— آسف لازعاجك ..

قال وهو يشد على يدى وينظر فى عينى :

— أرجو أن تنجح فى علاج سامى .. انه ولد طيب ..

قلت كأنى أطمئنه :

— سأبذل جهدى ..

وعاد يقول قبل أن يترك يدى :

— هل هناك أمل ..

قلت :

— أمل كبير ..

وترك يدى .. ونظر الى سليم دون أن يمد اليه يده .. وتردد سليم ثم قرر ألا يمد يده هو الآخر .. واكتفى بأن تمتم :

— مساء الخير ..

ولم يرد عليه الكاباكا .. ظل منتصبا بقامته الطويلة وسط

الكوخ ، وجلبابه الفضفاض الملون بخطوط صفراء وسوداء ، ينسدل فوق جسده الأسود .. فيبدو وكأن القمر يشق الليل باشعته الصفراء ..

وخرجنا من الكوخ ..

والكاباكا وراءنا ..

وفجأة طرأ على رأسي خاطر ، فالتفت الى الكاباكا وقلت له :

— هل أستطيع أن أرى بيندا ..

ونظر الى فى دهشة .. وقال متعجبا :

— بيندا ..

قلت :

— نعم .. سأراها لدقيقة واحدة .. انه أمر هام ..

وسكت الكاباكا برهة .. ثم خطا الى كوخ أخته .. وغاب قليلا .. وسليم واقف بعيدا عنى يدق الأرض فى ملل وضيق ..

وعاد الكاباكا ومعـــه بيندا ، وعيناه حمـــراوان فى لون وشاحها .. حرقتهما الدموع ..

وقلت لها فى لهفة :

— سؤال آخر .. لو سمحت .. عندما كنت تذهبين الى المدينة للبحث عن سامى .. هل كنت تعثرين عليه فى النهار ، أو فى الليل ..

وتنهدت وقالت فى زهق كأنها ضاقت بكثرة أسئلتى :

— انه فى النهـــار يكون فى الدكان .. وكنت أخاف أن أذهب اليه فى الدكان .. وكنت أجده دائما فى المساء ..

قلت :

— اسمعى .. غدا فى الساعة الثامنة تماما يجب ان تكونى على باب غرفتى فى الفندق .. ستجدين الباب مغلقا .. فانتظرى خلفه الى أن تدق الساعة الثامنة بالضبط .. ثم اقرعى قرعة خفيفة على الباب .. وعندما أفتح لك .. ستجدين سامى معى فى الغرفة .. فلا تندهشى .. تقدمى كأن الأمر عادى .. هل فهمت ؟

قالت :

— لم أفهم ماذا تقصد ..

قلت :

— انى أحاول بهذه الطريقة أن أفيق سامى من حالته ..

قالت فى دهشة :

— وهل يفيق بهذه السهولة ؟

قلت :

— لا أدرى .. انها مجرد محاولة ..

ومددت يدى لها مصافحا وأنا أقول :

— سأنتظرك غدا ..

قالت :

— مهلا .. انى لا أستطيع أن أذهب اليك فى الفندق ..

قلت فى دهشة :

— لماذا ؟

قالت :

— غير مسموح للزلوج أن يدخلوا هذا الفندق ..

قلت :

— سأعطى البواب أمرا بالسماح لك بالدخول ..

قالت :

— انه قانون ..

قلت :

— هناك وسائل كثيرة للتغلب على القانون ..

وتركتها وخطوت سريعا خارج القرية ، وسليم يلحق بى ..

وركبنا السيارة ، وأنا أفكر فى الصدمة التى أعدها لسامى..

كانت هذه الصدمة تعتمد على ضبط سامى وهو فى حالة انتقاله من شخصية الى أخرى .. أى فى نفس اللحظة التى يتم فيها تحوله من شخصية الرجل الأبيض الى شخصية الرجل الزنجى .. ففى هذه اللحظة يكون الصراع بين العقل الباطن والعقل الواعى على أشده .. وتكون قوة كل منهما مساوية للآخر .. وأى محاولة لمساعدة أحدهما قد تنصره على الآخر .. ومهمتى هى أن أستغل هذه اللحظة لأساعد العقل الواعى حتى يكتشف سر العقل الباطن ، فيحل عقدته ..

هذه هى الصدمة التى أعددتها لسامى .. وهو نوع من الصدمات لايزيد نسبة نجاحه عن عشرة فى المائة .. وأهم عيوبه أن مجرد وجود الطبيب مع المريض ، قد يحول دون نشوب الصراع بين العقل الواعى والعقل الباطن .. فالعقل الباطن هو دائما عقل جبان يسكت ، ويختبىء ، بمجرد احساسه أنه محاصر ، وأنه ليس متمكنا من فريسته ..

ولكن ..
الواقع أنى كنت فى حاجة الى صدمتين ، لاصدمة واحدة ..
صدمة لسامى ..
وصدمة لسامية ..
وبدأت أفكر خلال الطريق فى صدمة أخرى أعدها لسامية ، وقد غابت عن عينى كل مناظر الغابة التى تمر بها ..
وقطع على سليم تفكيرى وقال بصـــوت تائه كأنه يحادث نفسه :
— هل ستطلع سامى على كل شىء ؟
قلت وأنا أشد عقلى من التفكير فى سامية :
— المشكلة ليست فى اطلاعه .. ولكن فى الطريقـــة التى نطلعه بها ..
قال وأصابعه متشنجة فوق عجلة القيادة :
— قد يصدم عندما يعرف الحقيقة ، وتسوء حالته ..
قلت :
— انى أريده أن يصدم .. ولن تسوء حالته .
قال ولهجته اللبنانية تملأ فمه :
— أنا لا أريده أن يعرف شيئا ..
قلت فى هدوء :
— من حقه أن يعرف ..
قال فى حدة :

— ومن حقى أن أحمى سمعة العائلة .. وسمعتى .. وسمعة سامى نفسه ..

قلت :

— دع سامى يقرر ذلك ..

قال كأنه يصرخ :

— سامى مجنون لا يستطيع أن يقرر شيئا .. ثم انى لا أريدك أن تتدخل فى حياتنا الى هذا الحد .. ومن حقى أن أعفيك كطبيب من علاج أخى ..

قلت بنفس الهدوء :

— ليس هذا من حقك .. ان سامى ليس مجنونا حتى تعتبر نفسك قيما عليه .. ان المريض النفسانى عندما يكون فى حالته الطبيعية يعتبر انسانا كامل القوى العقلية .. من حقه أن يتصرف .. ومن حقه أن يختار طبيبه ..

ونظرت الى سليم نظرة جامدة واستطردت فى لهجة عتاب :

— انك انسان أنانى .. ولم أكن أعرف أنه يمكن أن تضحى بأخيك فى سبيل أنانيتك ..

وظل سليم ساكتا ، وأنفاسه متهدجة ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع .. وقال وعجلة القيادة تهتز فى يده :

— انى حائر يا دكتور .. انها مصيبة .. مصيبة ..

وابتسمت فى وجهه ، وقلت وأنا أربت على ظهره :

— اطمئن يا رجل .. وتأكد أن شفاء سامى فيه حل لكل المشاكل ..

ومسح سليم دموعه وظل صامتا الى أن وصلنا الى الفندق .. وقلت له وأنا أفتح « باب السيارة » ..

— أرجوك أن تبلغ سلمى أنى أريد أن أراه غدا الساعة السابعة فى حجرتى بالفندق .. وأرجوك ألا تقول له شيئا مما عرفناه .. أرجوك .. لو قلت شيئا لأفسدت كل شىء ..

وهز سليم رأسه موافقا ..

وهممت بالنزول من السـيارة ، ولكنى عدت والتفت اليه قائلا ، وفى رأسى فكرة جديدة :

— هل تحتفظ بالمجلات اللبنانية القديمة التى كانت تنشر صور سامية ، وتكتب عنها كمطربة ..

ونظر الى فى تعجب ، وقال :

— نعم .. انها فى الدولاب ..

قلت :

— أرجوك أرسلها الى فى الصباح الباكر ..

قال والدهشة تنطلق فى عينيه ..

— لماذا ؟

قلت :

— ستعرف فيما بعد .. تصبح على خير .

وتركته .. وصعدت الى غرفتى .. ونظرت فى الساعة .. انها الثانية صباحا .

وبدأت أخلع ثيابى وأنا أكاد أسقط من التعب .. وخوف

كبير يملأ صدري .. خوف من أن يفسد سليم خطتي ويطلع سامي على الحقيقة ..

وكان تعبي أكبر من خوفي ..

نمت ..

***

وقمت من نومي في الساعة الثامنة صباحا على صوت طرقات مهذبة على بابي .. وكان خادم الفندق يحمل لي مظروفا كبير .. وقال لي ان شخصا قد تركه للبواب وطلب توصيله الى في الحال .. حتى لو كنت نائما !

وفتحت المظروف ..

وابتسمت في راحة ..

كان المظروف من سليم .. وكان يضم الجرائد والمجلات اللبنانية التي كتبت عن سامية ونشرت صورتها .. وكانت ابتسامتي لأن ارسال هذا المظروف الى ، كان دليلا على أن سليم قد قرر بينه وبين نفسه أن يساعدني في علاج أخته وأخيه ، وأنه لن يفسد خطتي ..

وبدأت أقلب في الصحف والمجلات القديمة .. ان تاريخها يرجع الى عام ١٩٣٦ ، وسامية تبدو في صورتها ، في العاشرة من عمرها .. هزيلة .. صفراء .. ولكن في عينيها حيوية دافقة .. وترتدي زيا غاليا ، وتضع في معصمها سوارا من الماس لا تلبسه بنت في عمرها .. انما يدل على ثراء أبيها ، وعلى تباهيه بثروته ،

وعلى فساد ذوقه .. ومكتوب فوق الصورة عنوان كبير « مطربة افريقيا » ، ومكتوب تحتها أن الآنسة الصغيرة سامية الداعوق كريمة المهاجر والأديب المعروف سامح الداعوق ، قد غنت فى الحفله التى أقيمت فى زحلة لتكريم أبيها ، فادهشت السامعين بتمريدها العذب .. و .. و .. وكلام كثير فى جميع هذه الصحف والمجلات عن الموهبة المبكرة ، والبرعم المتفتح ، والفن الأصيل .. ولا غرو ، فهى فتاة بنت فنان .. الى آخر هذا النفاق الذى تجيده المجلات اللبنانية التى تصدر خصيصا لابتزاز أموال المهاجرين .

ورأيت صورة الأب ، السيد سامح الداعوق .. انه أقرب شبها الى سليم منه الى سامى .. ولكن وجهه أكثر امتدادا ، وعيناه أكثر حدة .. وله شارب مرفوع .. ويضع على رأسه طربوشا طويلا ، ويمسك فى يده بعصا ، لها يد من ذهب ، وفى أصبعه خاتم من الماس .. والغرور ينطق من وجهه .. غرور يكاد يكون جنونا .. وكلام كثير عن عبقرية السيد الوالد .. وعنوان كبير « أمير شعراء المهجر » .. ثم قصيدة من شعره ..

وقرأت القصيدة ، انه ليس شعرا .. انه قطع من الحجارة والطوب مرصوصة بعضها بجانب بعض ، فى شكل كلمات .. كلمات تنقصها الرقة ، وينقصها المعنى ، وينقصها الوزن .. ولا أدرى لماذا كان يصمم الوالد على أن يكون شاعرا .. ربما لأن المجتمع الضيق المعزول الذى يعيش فيه المهاجرون الى افريقيا ، يجعلهم يحاولون أن ينفسوا عن أنفسهم فى هواية فنية ..

تخفف من ضغط العزلة والنسيان على نفوسهم .. وغالبا ماتكون هذه الهواية مجرد خيال ، ليس لها واقع فني .. فيتخيل أحدهم أنه شاعر ، ويتخيل الآخر أنه مطرب ، ويتخيل ثالث أنه ممثل ، ويتخيل رابع انه أحسن من يعزف على البيانو في العالم .. وهكذا .. وربما حاول السيد الوالد في صغره ، أن يكتب الشعر تنفيسا عن ضيقه ، ثم لما أصبح غنيا ، مليونيرا ، حاول ان يفرض شعره على الناس بنقوده .. حاول أن يشترى المعجبين به بالمال ، كما تعود أن يشترى كل شيء .. فأغدق على أصحاب المجلات اللبنانية .. وهو مقتنع بينه وبين نفسه أنه شاعر أصيل .

وانتهيت من قراءة المجلات ، ووضعتها على المائدة ، وتعمدت أن أضع العدد الذى يحمل صورة سامية على رأسها .. وارتديت ثيابي ، وتناولت افطاري في الغرفة ، ثم أبلغت البواب ، أن يدع أى فتاة تسأل عني ، تصعد الى غرفتي فورا ..

كنت منتظرا سامية ..

لم يكن بيني وبينها موعد ، ولكنى كنت واثقا أنها ستأتى لزيارتي .. لقد جاءت أمس للاتفاق معي على موعد سفرنا الى لبنان ، ولم تجدني .. وربما خيل اليها أنى سافرت وحدى ، وانى تخليت عنها .. ولكنها ستأتى اليوم أيضا .. وأيضا لتتفق معي على السفر الى لبنان .

والواقع النفسي لسامية يدل على أن الدافع الحقيقى الذى يدفعها الى زيارتي ليس هو السفر الى لبنان .. ولكنها تحس في أعماقها أنها في حاجة الى .. في حاجة الى مساعدتي .. ولكنها

لا تستطيع أن تعرف سر هذه الحاجة .. لا تستطيع أن تبررها ، لأنها لا تعرف أنها مريضة .. وأنها فى حاجة الى كطبيب .. فتلجأ الى تبرير حاجتها الى ، بما عليه عليها عقلها الباطن .. وهو حاجتها الى السفر الى لبنان !

والواقع النفسى لسامية يدل أيضـا ، على أنها ليست فى حاجة الى السفر الى لبنان .. ولكن لبنان يمثل لها الفترة التى قضتها تعيش فى حلمها الكبير ، بأن تكون مطربة ذائعة الصيت .. هذا الحلم الذي غذاه أبوها حتى صوره لها كحقيقة تعيش فيها .. ولكنها لا تستطيع أن تواجه هذا الحلم الآن ، بعد أن ضغط أخوها سليم فى عقلها الباطن بقسوته ، ويضربها .. كل ماتستطيع أن تواجهه هو رغبتها فى زيارة لبنان .

هذا هو الواقع النفسى لسامية ..

وطال انتظارى لها ، حتى كدت أيأس ..

وفى الساعة العاشرة والنصف ، سمعت طرقا على بابى .. طرقات مترددة هزيلة ..

وفتحت ..

سامية على الباب ..

أكثر هزالا واصفرارا ..

واستقبلتها مبتسما ، متعمدا أن أبدو فرحا بلقائها ، وقلت كعادتى ، وأنا أجمع كل أعصابى وكل ذهنى :

— أهلا سامية ..

ودخلت مترددة ، وهى تتلفت فى أرجاء الغرفة ، كأنها تخاف أن يضبطها أحد ، ثم قالت هامسة :

— صباح الخير ..

وقلت بلا مقدمات وأنا أرفع صوتى لأبدو أكثر فرحا :

— ان صورتك منشورة فى الصحف ..

لم اقل صحف اليوم ، ولا صحف خمسة عشر عاما مضت .

وبهتت سامية ..

وقفت كأنها تسمرت فى الأرض .. وعيناها مفتوحتان .. وفكها الأسفل ساقط من وجهها .

ولم تتكلم .. فقط تنظر الى بهاتين العينين المفتوحتين ..

وصحت مرة ثانية محتفظا بلهجتى المرحة :

— لماذا أخفيت عنى أنك مطربة .. انك تغنين ..

وقالت فى صوت متحشرج ، كأن صوتها يخرج من حلقها دون أن يمر بشفتيها ..

— مطربة .. أغنى .. مطربة .. مطربة ..

وقلت وأنا ألتقط الجريدة القديمة من فوق المائدة ، دون أن أبدى اهتمامى بالحالة التى تعانيها ..

— انظرى .. انك جميلة فى الصورة ..

لم أقل انها « كانت » جميلة .. لم أحاول أن أشعرها أنى أتحدث عن شىء مضى ..

ونظرت سامية الى صورتها .. نظرت طويلا .. ووجهها يزداد اصفرارا .. وأنفاسها تتهدج .. ثم بعد قليل .. وهى

لا تزال ممسكة بالجريدة تنظر فيها الى صورتها .. ابتسمت .. واتسعت ابتسامتها .. ثم شدت قامتها .. ورفعت رأسها .. واستقرت نظراتها .. وضمت شفتيها .. ثم خفضت ذراعها الذى يحمل الجريدة .. ونظرت الى نظرة متعالية ، كأنها تنظر الى من فوق المسرح .. وقالت فى صوت حالم :

— لقد صفق لى الناس طويلا .. وقذفتنى احدى السيدات بوردة .. وكان الرجال يطلقون الرصاص فى الهواء ، ويصيحون .. لعيون سامية .. وجاء الخواجه سركيس صاحب مطعم زحلة ، وتوسل الى أبى أن يسمح لى بالغناء كل ليلة .. وقال انه سيتعاقد معى .. و ..

واستمرت سامية تروى كل التفاصيل كبيرة وصغيرة عن نجاحها في حفلة زحلة .. وقد سبق لها أن حدثتنى عن هذه الحفلة بالذات عند ما كانت تتحدث عن أبيها ، ولكنها لم تذكر شيئا عن نفسها .. لم تذكر لى أنها غنت .. وأن الناس صفقوا لها .. وأن الجرائد نشرت صورتها .

وابتسمت وأنا أحمد الله ..

لقد نجحت خطتى ، التى بنيتها على مفاجأة سامية بصورتها المنشورة فى الصحف .. نجحت فى اعادتها الى عملها الكبير .. الى الحقيقة الوهمية التى كانت تعيش فيها .. ولكنه نجاح جزئى .. نجاح فى حل جزء من العقدة المركبة التى تعانيها سامية .. فقد كان يجب أولا .. اعادتها الى حلمها الكبير .. ثم بعد ذلك افاقتها من هذا الحلم ..

وسامية لا تزال تتحدث عن تفاصيل حفلة زحلة .. ثم فجأة سكتت قبل أن تتم كلامها . وجحظت عيناها .. وانطلقت منهما نظرات خائفة .. وسقط فكها الأسفل مرة ثانية .. ثم سقطت الجريدة من يدها على الأرض .. و .. صرخت .. صرخات حادة متتالية ..

وفى الحال أخذت أصفق بيدى ..

وسامية تصرخ ..

وأنا أصفق ، وأحاول أن يعلو صوت تصفيقى على صوت صراخها ..

ثم بدأت أصيح وأنا مستمر فى التصفيق ، وهى مستمرة فى الصراخ :

— غنى يا سامية .. غنى .. أسمعينى صوتك .. لا تسكتى .. غنى .. أم كلثوم تغنى بمجرد أن أطلب منها أن تغنى ..

وهى لا تزال تصرخ .. وتتراجع من أمامى .. وتتراجع .. واصطدمت ساقها بحافة السرير فسقطت جالسة عليه ..

وقلت أريد أن أصدمها بمفاجأة أخرى :

— غنى يا سامية .. سليم لن يضربك .. لقد تعهد لى ألا يضربك .. انه معجب بصوتك .

وسكتت عن الصراخ فجأة ..

ونظرت الى فى شك مجنون .. ثم انطلق منها هذا الصوت المتحشرج الذى لا يمر بشفتيها ورددت :

— سليم لن يضربنى .. لن يضربنى .. سليم لن يضربنى ..

ثم ابتسمت ..

واستقرت ابتسامتها فوق شفتيها .. ثم أغمضت عينيها ..
وسقط كل جسدها على السرير ..

ونامت ..

او اغمى عليها من عنف المعركه النفسية التى اجتازتها فى هذه اللحظات ..

وقد كنت أعرف لمـادا بدات سامية فى الصراخ .. لقد صرخت عند ما انتقل بها عقلها الباطن فجـأة من المرحله التى كانت تغنى فيها ، الى المرحله التى بدا فيها سليم يضربها بقسوة حتى تكف عن الغناء .. اختفت من عينيها صورة الجمهور الذى يصفق لها ، وارتفعت صورة صفعات سليم .. وقد صفقت لها فى هذه اللحظة حتى أساعدها على الاعتقاد بأن ما تراه أمام عينيها ليس صفعا ، ولكنه تصفيق .. وكان يساعدنى على نجاح هذه الفكرة ، أنها فى الواقع لا تحس با لام الصفع ، انما كل ما تحس به هو صورة ايد تتحرك بالصـفعات .. وهى تقريبا نفس حركات التصفيق .. وكنت بذلك أحاول أن أساعد عقلها الواعى على أن يغلب عقلها البـاطن ، ويتحرر من الخوف ..
وعند ما فاجأتها بقولى « سليم لن يضربك » ، كنت أحاول أن أكون أنا صوت عقلها الواعى .. ولأنها تجهل أنى أعرف أن سليم كان يضربها ، فكان من السهل عليها أن تستسلم بعقلها الواعى الى ..

ونجحت الخطة ..

ولكنها نامت ، أو أغمي عليها ، وكان أكثر ما أخافه أن تفيق من نومها وهي في نفس الحالة التي كانت عليها .. يهرب منها حلمها الكبير .. وتضغطه في عقلها الباطن تحت ضغط صفعات سليم ..

ورفعت جسدها كله فوق السرير ، وغطيتها بالملاءة البيضاء .. ثم استدعيت خادم الفندق ، وأمرته أن يستقل سيارة أجرة ويذهب الى دكان سليم ويستدعيه حالا الى ..

وأعطيت الخادم بقشيشا كبيرا ..

وجلست أفكر في صدمة ثالثة أفيق بها سامية من حلمها الكبير .. وأدفع شخصيتها الى النمو الطبيعي ، حتى تترك عمر العاشرة ، الذى لا تزال تعيش فيه ، وتنتقل الى عمرها الحقيقي .. عمر الثالثة والعشرين ..

وجاء سامي .. ودخل غرفتي مهرولا .. وسقطت عيناه على أخته الراقدة على السرير ، وصرخ في لهفة حقيقية :

— ماذا حدث لها ؟

قلت في هدوء أرطب به لهفته :

— لا شيء .. مجرد اغماء بسيط ..

قال :

— متى أغمي عليها .. ولماذا .. ماذا فعلت بها ..

قلت في هدوء :

— دعك من هذا الآن ..

ثم بدأت أحلل له حالة سامية تحليلا بسيطا حتى يستطيع

أن يفهمه .. وأكدت له أنه لم يبق الا خطوة واحدة ، ويتم لها الشفاء ..

ثم قلت له وأنا أنظر فى عينيه ..

— أليس فى باماكو تخت موسيقى شرقية ؟

قال فى دهشة :

— لماذا ؟

قلت :

— حتى تغنى سامية بمصاحبته .. اننا سنقيم حفلا غنائيا !

وانطلق سليم بلهجته اللبنانية صارخا :

— يخرب بيتك .. شو بتعمل فيها .. ان صوتها العن من مواء القطط ..

قلت فى هدوء وأنا أبتسم :

— أعرف .. ولكن هذه هى الطريقة الوحيدة التى أراها أمامى ..

قال :

— انك ستفضحنا فى كل البلد ..

قلت :

— لا تقل للمدعوين أن سامية ستغنى .. قل لهم انك فقط تدعوهم الى حفل موسيقى .

قال :

— مستحيل .. مستحيل .. هذه نهاية سمعتنا ..

قلت وأنا أمسك بيده :

— أرجوك يا سليم .. ساعدني .. لا يمكن أن تكون أقل اهتماما بشفاء أختك مني ..

ونكس سليم رأسه .. وسكت طويلا .. ثم أخرج منديلا وأخذ يمسح به العرق المتصبب على وجهه .. ثم قال وهو لاينظر الي :

— ان عندنا بعض المهاجرين يجيدون العزف .. واحد يعزف على الكمان .. وآخر يعزف على العود .. وثالث على القانون .. والرق .. و ..

وقاطعته :

— هذا يكفي .. متى سنقيم الحفل ؟

قال وكأنه سلم أمره لي ولله :

— كما تشاء ..

قلت :

— غدا مساء ..

وهز رأسه موافقا ، واستطردت قائلا :

— هناك شيء آخر .. ان سامية ستفيق الآن وهي تذكر كل شيء عن أيامها عند ما كانت تغني .. الأيام التى كان أبوها يقنعها خلالها بأنها مطربة كبيرة .. وأريدك أن تعاملها على أنها فعلا مطربة كبيرة .. وكأنها لا تزال في عمر العاشرة .. واعتذر لها عن ضربك لها .. اعتذر لها كأنك ضربتها أمس فقط .. واقنعها أنك معجب بصوتها .. وكل ما هنالك أنك كنت عصبيا عند ما ضربتها ، وأن سر عصبيتك هو سوء حالة العائلة المالية .

ورفع سليم عينيه الى ، ثم عاد وخفضهما وقال هامسا :
— حاضر ..
وقمت من مكانى ، وفتحت حقيبتى الطبية ، وأعددت حقنة منشطة حقنت بها سامية ، ثم قربت من أنفها قطعة مغموسة فى الأثير ..
وبعد قليل أفاقت ..
واحتضنها سليم وهى تقوم من الفــراش وقال فى حنان كبير :
— تعالى نعود الى البيت يا سامية ..
وسارت مرتكنة عليه .. هزيلة .. صفراء .. وذراعه حول خصرها .. وقبل أن يخرجا ، قلت لسليم وأنا ابتسم له ابتسامة مشجعة :
— هل اتفقت مع سامى أن يمر على فى الساعة السابعة ؟
قال :
— نعم .. سيأتى اليك !
وخرج محتضنا أخته .. وقلبى يتمزق عليه وعليها ..

***

وتركت غرفتى ، ونزلت الى قاعة الطعام لاتناول غدائى ، ومررت على بواب الفنــدق ، وقلت له ، وأنا أضــع يدى فى جيبى :

— هناك فتاة زنجية ستسأل عنى هنا فى الساعة الثامنة ..
أرجوك دعها تصعد الى غرفتى بمجرد حضورها ..

ورفع بواب الفندق حاجبيه وقال فى اصرار :

— مستحيل يا دكتور .. هذا ممنوع .. هذا قانون ..

وأخرجت يدى من جيبى وفيها خمسة آلاف فرنك ، أى حوالى خمسة جنيهات ، ودسستها فى يد البواب :

— أرجوك .. حاول .. انها مسألة هامة .

وتقلصت أصابع البواب فوق النقود ، وقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

— سأحاول ..

— ٩ —

فى حوالى الساعة السابعة دخل سامى الى غرفتى ، وصافحنى دون أن يرفع عينيه الى .. كان يبدو منهكا ، باهت اللون ، كأنه قضى لياليه أرقا .. وكانت على وجهه علامات تفكير عميق .. وفى عينيه حيرة أجهدته ..

وفاجأته قائلا ، بمجرد أن أجلس على المقعد الكبير الذى يتوسط الحجرة :

— لقد عرفت الكثير عن طفولتك !..

ورفع الى رأسه فى هدوء ، ونظر الى وبين شفتيه ابتسامة ساخرة وقال :

— ماذا عرفت ؟

قلت وأنا أسجل فى ذاكرتى كل خلجة ترتسم على وجهه :

— عرفت أنك كنت تلعب مع الأطفال الزنوج ..

وارتعشت رموشه فوق عينيه ، ثم جمع أصابعه فى قبضته محاولا أن يضغط على أعصابه حتى يحتفظ بهدوئه .. ثم قال وهو يميل بظهره على مسند المقعد :

— كنت أضربهم ..



قلت بسرعة :

— وكنت تحمل اليهم الحلوى والشيكولاته ..

ونظر الى فى دهشـــة كأنه يتعجب من أين جمعت هـــذه المعلومات .. ولم يرد على ..

واستطردت قائلا بلهجة عادية وكل عينى فوق وجهه :

— وكانت تأتى اليك سيدة زنجية تجلس معك وتروى لك أساطير الزنوج ..

واعتدل فى جلسته ، ونظـــر الى بعينين مفتوحتين وقال متسائلا :

— سيدة زنجية ؟! ..

قلت :

— نعم ..

وعقد ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يتذكر ، ثم قال بلا مبالاة :

— لا أذكر

قلت فى هدوء ..

— حاول أن تذكر ..

قال والعجب يشتد فى عينيه :

— لماذا أحاول أن أتذكر ؟ ..

قلت وأنا أنظر اليه نظرات ثابتة :

— لأنى أريدك أن تذكر ..

وقال فى حدة ووجهه يحتقن :

— لماذا .. وما سر تفتيشك فى حياتى ، واصرارك على أن تعرف كل يوم من أيامى .. انى أحس بجو غريب يحيط بى منذ عرفتك .. أحس كأن هناك مؤامرة تدبر ضدى ..

قلت فى هدوء .

— هناك ناس يحاولون مساعدتك ..

وصرخ وهو يعتدل فى جلسته :

— مساعدتى فى ماذا .. ومن الذى طلب منهم أن يساعدونى .. لماذا كل هذا الجو الغريب ؟.

قلت وأنا أكثر هدوءا :

— لأنك مريض ..

وانتفض رأسه فوق عنقه ، واصفر وجهه وقال وقد بدت شفتاه أكثر جفافا :

— أنا لست مريضا ..

قلت فى اصرار :

— أنت مريض .. وتعلم أنك مريض ..

قال فى حدة وقد بدأت معـركة هائلة تشب فى نفســه ، يحاول أن يهرب منها فلا يستطيع :

— مريض بماذا ؟.. .

قلت محتفظا بهدوئى :

— مرض اسمه ازدواج الشخصية ..

قال وهو يدير عينيه عنى ، وظهـره يسقط فوق مســند المقعد :

— ماذا يعني هذا ؟ ..

قلت في بساطة :

— أتذكر يوم قال لك أخوك سليم انك كنت في الغابة .. لقد كنت أنا معه .. ورأيناك هناك ترقص مع الزنوج ..

قال في صوت كالصراخ :

— أنا لم أكن في الغابة .. ولم أرقص عمري مع الزنوج .. اني أحتقرهم .. وأنت واهم كأخي سليم ..

قلت وعيناي لا تزالان فوق وجهه :

— اني أعرف انك لا تدري انك كنت هناك .. لو كنت تدري ، لما كنت مريضا ..

قال صارخا :

— لا تقل اني مريض ..

ثم سكت .. ومال رأسه فوق مسند المقعد .. وبدأت أنفاسه تتهدج .. ووجهه يزداد اصفرارا ..

وطالت فترة سكوته ..

وأنا ساكت بجانبه .. وكنت أعلم أنه في فترة سكوته يخوض المعركة .. معركة يثيرها عقله الواعي ليكشف سر عقله الباطن ..

وأخيرا قال كأنه يخاطب نفسه :

— كل ما أحس به أن هناك أشياء تحدث لي ولا أذكرها .. أحس كأن هذه الأشياء اختفت خلف ضباب .. وأحاول أن أخترق الضباب فلا أستطيع ..

قلت كأنى لم أسمعه :

— هـل تذكر المرأة الزنجية التى كانت تجلس معك فى صغرك وتروى لك أساطير الزنوج ؟ ..

وجحظت عيناه أمامه كأنه يمدهما ليخترق بهمـا الضباب ، ثم قال :

— لا .. لا أذكر .. هذه المرأة ليست فى حياتى ..

قلت :

— انها فى حياتك .. انها أهم شىء فى حياتك ..

قال فى اصرار ..

— لا أذكرها ..

قلت :

— حاول .. انك تستطيع أن تذكرها ..

وقطب حاجبيه ، ومسح العرق من فوق وجهه بكف يده ، وقال كأنه يبكى :

— لا أستطيع .. لا أستطيع ..

قلت :

— أتذكر قصة الملك الزنجى سوتدياتا ...

ولوى عنقه الى :

— ما دخل قصة سـوتدياتا الآن .. انك تحيرنى .. انك تعذبنى ..

قلت بسرعة :

— هل تذكر متى سمعت هذه القصة ؟ ..

قال :

ـــ انى أسمعها دائما .. انها قصة معروفة ومكتوبة فى كل الكتب التى كتبها الفرنسيون عن تاريخ دولة مالى ..

قلت :

ـــ ولكنك لم تقرأها .. لقـــد سمعتها .. وكنت صـــبيا صغيرا ، وكنت تلعب فى الساحة المتربة مع الأطفال الزنوج .. وكانت تأتى اليك امرأة زنجية متوسطة العمر .. جميلة .. جميلة جدا .. وتجلس فى طرف الساحة المتربة فى ظل شجرة سنط .. وتناديك اليها .. فتذهب اليها فرحا .. وتجلس بجانبها على الأرض رغم ثيابك النظيفة الأنيقة .. فتعطيك بعض اللعب الصغيرة .. لعب من التى يلعب بها الأطفال الزنوج .. ثم كانت تروى لك حكايات .. حكاية الملك سوتدياتا .. ثم تنصرف عنك .. وقد كنت تحب هذه المرأة .. تحبها دون أن تدرى سبب حبك لها .. ثم لم تعد المرأة تأتى .. وانتظرتها طويلا .. كنت تنتظرها كل يوم .. ثم بدأت تنساها .. اختفت فى عقلك الباطن ..

وكان سامى يتنفس خلال كلامى بصعوبة .. وعيناه هائمتان أمامه والعرق يزداد تصببا على وجهه .. وأصابعه متشنجة فوق مسندى المقعد .. ويغوص فى جلسته كأنه يحاول أن يختبىء من شىء .. ثم همس فى صوت كالخوار .. صـــوت ينطلق من داخله ، كأن شخصا آخر يعيش فى معدته :

ـــ لا أذكر .. لا أذكر ..

قلت فى بساطة الحقيقة :

— انك تذكرها جيـــدا .. تذكرهـــا لا بذاكرتك .. بل بأعماقك .. بل انك لا زلت تبحث عنها .. أعماقك تبحث عنها .. وقد رأيتها .. وتتبعتها .. رأيتها منذ مدة قريبة .. لقد كنت معها منذ ليلتين ..

وقال وصوت الحوار يصطدم بأنفاسه المتهدجة :

— أنا .. أنا .. مستحيل .. لماذا أبحث عنها ..

قلت فى هدوء يحمل قوة المفاجأة .. قوة الصدمة :

— لأنها أمك ..

وقفز صارخا صرخة مجنونة :

— أنت مجنون .. أمي ماتت .. ماتت ..

قلت :

— لم تكن أمك التى ماتت ..

قال :

— أنت مجنون .. أنت تكذب ..

قلت وصـــوتى الهادىء يرن فى وســـط صراخه ، وعيناى مركزتان فى عينيه كأنى أملى عليه ارادتى بالتنويم المغناطيسى :

— أنت تعلم أنى أقول الحقيقة .. شىء فى نفسك يعلم أن هذه هى الحقيقة .. حاول أن تواجه الحقيقة .. حاول أن تصل الى هذا الشىء .. انك الآن تشك فى الحقيقة .. انك لست متأكدا من أنى كاذب .. ولكنك فقط تشك فى الحقيقة .. أريدك أن تجتاز مرحلة الشك .. يجب أن تجتازها ..

وصرخ بأعلى صوته وعيناه متسعتان على آخرهما ، حتى أصبح كل وجهه عينان ..

— أنت مجنون .. وتريد أن تجنني ..

ثم رفع مقعدا صغيرا وقذفني به وهو لا يزال يصرخ :

— لا تجنني .. لا تجنني ..

ووجهه يرتعش .. والخلجة التى فوق شفته العليا أشد ارتعاشا حتى تكاد تنخلع من وجهه .. وعيناه المخيفتان فيهما لمعان قوى .. لمعان أقرب الى لمعان الجنون ..

وكنت متعودا على هذه الحالات التى ينقلب فيها الجنون الهادىء الى جنون عنيف .. وتعلمت بالمران كيف أتجنب ثورة مرضاى ، فتجنبت بسرعة المقعد الذى قذفني به .. وعدت أنظر الى وجهه فى هدوء ..

واتبه سامى على صوت اصطدام المقعد الذى قذف به .. وتسمر فى وقفته .. يحلق فى المقعد الملقى على الأرض .. ثم يحلق فى وجهى .. وأنفاسه لا تزال تتهدج ..

وخفت أن يهدأ ..

وألقيت نظرة سريعة على ساعتى ..

انها الثامنة بالضبط ..

وقلت لسامى وأنا أحاول أن أثيره أكثر :

— انك ستراها الآن ..

قال ، ولعابه يخرج كرغاوى الصابون فوق شفتيه ، من شدة تهدج أنفاسه :

— من ؟ ..
فقلت فى هدوء :
— أمك ..
وهم أن يصرخ من جديد .. وصوت الخوار ينطلق من تحت لسانه بلا كلام ..
وفى هذه اللحظة سمعت نقـرة خفيفة على باب غرفتى .. ونظرت الى الباب ، فلمحت ظل قدمين صـغيرتين تطلان من تحته ..
وقلت لسامى فى هدوء :
— لو فتحت الباب الآن ستراها ..
ولم يكن سامى قد سمع النقـرة على بابى .. فاحتبست صرخته .. ونظر الى فى ذهول يثير الشفقة ، وقال كالتائه وهو يتلفت حوله :
— أى باب ؟ ..
قلت :
— باب الغرفة ..
وظل فى مكانه ينظر الى فى ذهول ..
وعدت أقول له فى لهجة فيها رنة السيطرة .. سيطرتى على شخصيته :
— تحرك .. افتح الباب ! ..
ولم يتحرك ..
فجذبته من ذراعه فى قوة ولكن بلا عنف ، وأنا أقول له :

— افتح الباب .. لأمك ..

ونظر سامي الى الباب .. ثم عاد ينظر الى كأنه يستغيث بي ..

وقلت له في حدة :

— افتح الباب .. لتتأكد بنفسك أنها أمك .

ومد سامي يدا مرتعشة ، يزداد ارتعاشها كلما اقتربت من الباب .. وأنفاسه تزداد تهدجا ..

ثم مرة واحدة .. فتح الباب ..

ورأى بيندا واقفة أمامه تبتسم ..

وتراجع الى الوراء ..

والخلجة فوق شفته العليا تزداد ارتعاشا .. والعرق يتفصد من كل قطعة في وجهه ..

وظل يتراجع ..

وكانت هذه هي أهم لحظة .. اللحظة التي ينتقل فيها سامي من شخصية الرجل الأبيض الى شخصية الرجل الزنجي ..

كانت هذه هي اللحظة الوحيدة التي أستطيع أن أستغلها لأساعد عقله الواعي على اكتشاف عقله الباطن ..

واقتربت منه وأنا أنظر اليه بكل عيني ، وقلت له في صوت أضع فيه كل مالي من قوة تأثير :

— انظر اليها جيدا .. لا ترفع عينيك عنها .. انها تشبه المرأة الأخرى .. المرأة التي كنت تراها في صغرك .. انها تكاد تكون هي .. انظر اليها .. لا تفقد سيطرتك على نفسك .. انك

الآن تذكر المرأة الأخرى .. انها تشبه هذه الفتاة .. نفس العينين .. والشفتين .. ونفس الابتسامة .. ونفس اللون .. و ..

وسامى يتراجع من أمام بيندا .. وكان تراجعه دليلا على أن عقله الواعى لم يذب بعد أمام عقله الباطن .. وظل يتراجع .. وهو يتخبط فى قطع الأثاث .. ويكاد يقع فوق كل قطعة .. وكله يرتعش .. خطواته ترتعش .. يداه ترتعشان .. ووجهه يرتعش .. وأنا لا أكف عن الكلام .. أتكلم باستمرار ، مخاطبا عقله الواعى ، حتى أنصره على عقله الباطن .. ثم سقط سامى فوق المقعد الكبير .. وأمال رأسه الى الوراء .. وأغمض عينيه .. وأنفاسه تتهدج .. وعرقه يتصبب ..

انه ليس نائما ..

وليس مغمى عليه ..

وأنا واقف أنظر اليه بكل عينى .. أرقب كل خلجاته .. وبيندا واقفة عند الباب تنظر اليه فى لوعة وخوف ..

وكنت أنتظر كلمة واحدة تخرج من فمه ..

كلمة واحدة هى التى ستحدد مصيره ..

لو خرجت هذه الكلمة بلغة « الولف » ، فقد فشل العلاج .. ولو خرجت باللغة العربية فقد نجح العلاج .. ونجحت ..

وفتح سامى عينيه .. ونظر الى بيندا نظرات تائهة كأنه ينظر اليها من بعيد .. من بعيد جدا .. ثم عاد وأغمضهما كأنه ينظر

بهما الى داخل نفسه .. ووجهه يزداد امتقاعا .. أصبح وجهه فى لون الموت .. وبعد فترة فتح عينيه مرة أخرى ..

وخرجت الكلمة ..

تكلم ..

تكلم باللغة العربية ولهجته اللبنانية ضعيفة مريضة متهافتة..

قال :

— نعم .. انها تشبهها ..

وجلست على المقعد فى راحة .. راحة الانتصار .. وقلت وأنا أبتسم كانى استاذ يختبر ذاكرة تلميذه :

— تشبه من ؟ ..

وألقى سامى نظرة أخرى على بيندا الواقفة على الباب ، ثم التفت الى قائلا :

— تشبه المرأة الأخرى .. انى أذكرها الآن تماما .. هى التى روت لى قصة الملك سوتدياتا .. وكنت أنتظرها لتروى لى مزيدا من الأساطير .. وكنت أتشبث بها عندما تهم أن تتركنى .. وألح عليها لتبقى معى .. ثم كنت أسير معها حتى شاطىء النيجر .. وهناك تصر علىأن تتركنى .. لا أدرى لماذا .. ثم تعبر وحدها الجسر المقام هناك .. وأعود وحدى الى البيت .. حزينا لأنها تركتنى ..

قلت وأنا محتفظ بابتسامتى :

— هل كنت تحدث أباك عنها ؟ ..

قال :

— لا .. كنت أشعر أن بيني وبينها سرا لا يصح أن أطلع عليه أحدا .. ولم أكن أدرى ما هو هذا السر .. و ..

والتفت الى وهو يشب بعنقه نحوى وقال فى صوت أضعف من أن يحتمل ثورته :

— من قال لك انها أمى ؟ ! ..

قلت :

— سأروى لك كل شيء .. دعنى أولا أحقنك بحقنة منشطه .. انك فى حاجة اليها ..

وكان فعلا فى حاجة الى حقنة منشطة .. كنت أخاف على قلبه ان يقف تحت ضغط الأزمة التي يجتازها ، والمجهود العنيف الذي بذله ..

وقمت من مقعدي لأعد الحقنة ، وسامى يتبعنى بعينين عابرتين .. وبيندا لا تزال واقفة عند الباب تنقل عينيها بينى وبين سامى فى ذهول ، كأنها تنظر الى طقوس يقوم بها ساحر ، وكلما التقت عيناها بعينى سامى ابتسمت له فى تردد كأنها تذكره بنفسها .

ولم يكن يبدو على سامى أنه يذكرها .. كان ينظر اليها نظرات ضعيفة كأنه لا يزال يقارن بينها وبين المرأة الأخرى .. ولم يكن وجهه يرتعش ، ولم يكن لأنفاسه صوت — كما كانت تصفه لى بيندا عندما يراها ويتبعها الى القرية — ولكن وجهه كان مستقرا ، وأنفاسه تهدأ فى صدره .. وعلى شفتيه ابتسامة مريضة متعبة ..

وقلت لبيندا وأنا أعد الحقنة :

— اجلسي يا بيندا .. وأغلقي الباب وراءك !

وأغلقت بيندا الباب ، وتقدمت فى خطوات مترددة ، وعدلت المقعد الصغير الذى ألقاه سامى على الأرض ، لتجلس عليه .. والتفت الى سامى لأرى تعابير وجهه .. كنت أخشى أن يغضب لأن فتاة زنجية تجلس معه فى نفس الغرفة ، وفى نفس مستوى الاحترام .. ولكنه لم يغضب .. بالعكس حاول أن يقوم من على مقعده ليفسح مكانه لبيندا .. ولكنه عاد وسقط على المقعد من شدة تعبه .. وابتسامته لا تزال بين شفتيه ..

وجلست بيندا أمامه وهى تنظر اليه وابتسامة كبيرة ترح فوق أسنانها البيضاء .

ثم التفتت الى كأنها تستغيث بى ..

انه لا يذكرها ..

لا يذكر أنها زوجته ..

ولا يذكر أنه تعود أن يتبعها كلما رآها ..

وابتسمت لبيندا أطمئنها ..

ثم كشفت عن ذراع سامى وحقنته ، وهو يقول باللغة العربية .. وكان حديثه باللغة العربية زيادة تأكيد لى بأنه انتصر نهائيا على عقله الباطن .. عقله الباطن أصبح ضعيفا مهزوما أمام عقله الواعى :

— ألن تروى لى القصة ؟

قلت وأنا أبتسم :

— اصبر ..

ثم فتحت دولابي وأخرجت زجاجة كونيـاك كنت أحتفظ بها ، وأعطيته كأسا .. شربه وهو ينظر الى بعينين شاكرتين ..

ثم جلست قبالته على حافة السرير ، وأخذت أروى له كل القصة .. كل شيء .. كل التفاصيل .. وأشرح له حالته .. حالة ازدواج الشخصية .. والتصرفات التي كان ياتي بهـا دون أن يشعر .. وهو يتابعني بعينين دهشتين والمقنـة المنشطة وكأس الكونياك يصبغان وجهه بلون الحياة .. وكان يقاطعني :

— هل فعلت هذا .. أنا !!

وأرد عليه :

— نعم .. وستجد الدليل بنفسك !

الى أن رويت له قصة أمه .. وقصة ولادته وطفولته .. ثم قلت له انى رأيت أمه ، ووصفتها له ..

وتعقد وجهه فى تأثر عميق ، وقال :

— كل ما كنت أسمعه ، اشاعات تقـول ان أبى تزوج فى صغره من امرأة زنجية .. ولكنى لم أكن أصدق هذه الاشاعات .. ولم أكن أعتقد أن أبى يبلغ من القسـوة الى حد أن يحرم أمى منى ..

قلت :

— ان أباك معذور .. انه ضحية المجتمع الافريقى الذى يفرق بين الزوجة الزنجية والزوجة البيضاء ..

وهز سامى رأسه ، وشفتاه مقلوبتان فى مرارة كأنه لا يقبل عذرا لأبيه ..

ثم التفت الى بيندا وقال لها باللغة الفرنسية :

— وهل الآنسة تعلم كل ذلك ؟

قالت فى حياء وهى ترخى عينيها :

— لم أكن أعلم أنك ابن عمتى !

وارتفع حاجبا سامى فى دهشة ، وشب بعنقه نحوها ، وقال بصوت مبهور :

— وهل أنا ابن عمتك ؟

قالت فى خفر :

— نعم ..

وقلت معقبا :

— وهى زوجتك أيضا !

وانتفض واقفا وصرخ :

— وتزوجتك أيضا.. مستحيل .. مستحيل .. هذا ادعاء .. هذا كذب ..

واغرورقت عينا بيندا بالدموع ..

وقلت لسامى فى هدوء :

— ان زواجك مسجل فى القبيلة .. وكل أفرادها يشهدون عليه ..

قال فى حدة :

— ولو ..

قلت :

— هل تذكر قصة هذا الخدش الذى يشق عنقك ..

ورفع كفه بحركة تلقائية وتحسس الخدش فى عنقــه كأن ناموسة لسعته .. ثم قال فى حيرة :

— لا .. لا أذكر !

قلت :

— انه خدش حديث .. لم يمض عليه أكثر من أربعة أيام ..

قال :

— أعلم ذلك .. ولكنى لا أذكر شيئا عنه .

قلت وأنا أنظر الى بيندا :

— ان بيندا تستطيع أن تذكرك به ..

ولم تتكلم بيندا .. رفعت أصابعها ومسحت بها دموعها .. وعدت أقول لها :

— تكلمى يا بيندا .. لم يعد هناك شىء تخفيه ..

وأسقطت بيندا رأسها فوق صدرها ، وقالت فى صـــوت خافت :

— كنا قد انتهينا من الرقص .. وأردت أن تجذبنى داخل الكوخ .. ولكنى فررت منك الى الغـــابة .. وأخذت أجرى ، وأنت تجرى ورائى .. ونحن الاثنين نضحك .. الى أن لحقت بى .. لم تلحق بى لأنك أسرع منى .. بل لأنى سمحت لك أن تلحق بى .. وأمسكتنى .. وافتعلت المقاومة .. أحاول أن أهرب منك .. وأنت تحاول أن تمسكنى من شعرى .. وخدش ظفرى

عنقك .. غصبا عنى .. وسال الدم .. فجففته لك بشفتى .. ثم عدنا الى الكوخ ..

وظل سامى ينظر اليها فى تعجب واهتمام ، كأنه يحاول أن يكتشف نفسه فى وجهها ..

ثم عاد وجلس على مقعده ، ووضع رأسه بين كفيه .. وظل صامتا ..

وعادت بيندا تجفف دموعها بكف يدها ، ثم رفعت رأسها فجأة ، وقالت لسامى فى حدة :

— أنا لا يهمنى أنك تزوجتنى .. كل ما يهمنى أنك كنت تحبنى ! ..

ورفع سامى رأسه اليها ، ونظر اليها طويلا .. وظل ابتسامة مسكينة يطل من شفتيه .. ثم ألقى برأسه الى الوراء وأسنده على ظهر المقعد ، وقال فى صوت هامس كأنه يحادث نفسه :

— اننى ماتيس .. أبى أبيض ، وأمى زنجية !

قلت كأنى أخفف عنه :

— هذا ليس عيبا !

قال :

— لا يادكتور .. انك لاتعرف كيف يعامل الناس الماتيس ..

قلت :

— هذا عيب المجتمع .. وليس عيب الماتيس .. ان الماتيس انسان كامل ، ومن حقه أن يفرض مكانته على المجتمع .. على أى مجتمع ..

وهز سامى رأسه فى استخفاف ، وقال وهو يهز كتفيه كأنه يهزأ بعصبيته :

— سنرى ..

ثم عاد يضع رأسه بين كفيه ..

وقامت بيندا واقفة فى عصبية ، ونظرت الى كأنها تلومنى ، لأنى أفقدتها تأثيرها على سامى ، وقالت فى حدة :

— يجب أن أنصرف الآن ..

قلت وانا أبتسم لها فى امتنان صادق :

— شكرا .. لقد اديت دورك كما أردته .. لولاك لما استطعت شيئا ..

ونظرت الى فى ازدراء ، ولم تمد يدها لتصافحنى ..

وهمت أن تتجه الى الباب ، وفجأة رفع سامى رأسه ، وقال لها فى صوت ثابت كأنه انتهى من اتخاذ قراره :

— انتظرى .. سآتى معك !

وابتسمت بيندا ابتسامة مترددة ، ووقفت فى حيرة كأنها لا تصدق أن سامى سيذهب معها .

ومد سامى يده يصافحنى .. وقال فى لهجة جديدة ، ليس فيها كلامه الكثير ، ولا ضحكاته الفارغة :

— شكرا يا دكتور .. أحس بأنى استرحت .

قلت وأنا أصافحه :

— متى أراك ؟

قال :

— سأمر عليك ..

قلت :

— يجب أن أراك مرة ثانيـــة .. انى مسافر كما تعلم بعد غد !

قال :

— سأحاول ..

ومشى مرفوع الرأس الى بيندا .. لا ينظر الى بوز حذائه كعادته ..

وقالت بيندا فى صوت خافت :

— أعتقـــد أنه يجب أن أنزل وحــدى ، وتلحق بى فى الشارع .. ان الزنوج ممنوعون من هذا الفندق كما تعلم .. ويجب ان اخرج متسللة !

وارتفع رأس سامى فى كبرياء ، وقال كأنه انسان جديد ، ولهجته اللبنانية الضخمة تملأ شدقيه :

— ألم تقولى انك زوجتى .. ان زوجتى لا تخرج من مكان متسللة .. لا أحد يستطيع أن يمسها ..

ووضع ذراعه فى ذراعها وجذبها نحو الباب ..

والتفتت الى بيندا تبتسم ابتسامة كبيرة .. تشكرنى بها ..

وصحت وراء سامى :

— أين تذهب ؟

وقال سامى وهو يختفى من أمامى ، هو وبيندا ..

— لست أدرى ..

وكنت أعلم أن أول ما سيحاوله سامى بعد أن يخرج هو أن يتأكد بنفسه من صـدق المعلومات التى أدليت له بهـا . سيحاول أن يكتشف بنفسه تاريخ حياته .. وأصل عقدته

وأغلقت بابى وراءهما ، وألقيت نفسى على المقعد الكبير وأنا اتنهد فى راحـة .. ثم أمسكت بدفتر مذكراتى الطبية ، وأخذت أسجل ما حدث ..

ولكنى لم أتم تسجيل مذكراتى ..

نمت ..

***

وفى صباح اليوم التالى ، وفى الساعة العاشرة .. دوت طرقات عنيفة متعجلة على بابى .. ودخل سليم مهرولا ولهجته اللبنانية تتدفق أمامه ، وهو يصيح :

— يا دكتور .. سامى لم يعد الى البيت منذ ليلة أمس ..

ونظرت اليه فى اهتمام وقلت :

— هل سألت عنه فى القرية ..

قال وهو يكاد يبكى :

— سـألت .. انه لم يذهب الى هناك .. ماذا فعلت به يا دكتور ؟

قلت :

— وهل سألت عن بيندا ؟

قال :

— وجدتهم فى القرية يبحثون عنها أيضا .. انها لم تذهب الى هناك .. طمئنى يا دكتور .. ماذا فعلت بأخى ؟

قلت :

— اطمئن .. أخوك شفى .. ومهما حدث سيعود اليك انسانا سليما ..

قال :

— كيف أطمئن ..

قلت :

— ثق بى ..

والواقع انى لم أكن مطمئنا على سامى .. انى أعرف أن الطريقة التى عالجته بها ، قد تؤدى الى نكسة .. قد يعود فى حالة أسوأ مما كان فيها .. ولكننى أخفيت مخاوفى عن سليم ، وقلت له بسرعة حتى أشغله عن التفكير فى سامى :

— هل أعددت الحفلة الموسيقية ؟

قال :

— نعم .. أعددتها .. ولكن و ...

وقاطعته قائلا :

— متى تبدأ ؟

قال :

— فى الساعة الثامنة ..

قلت :

— وهل عاملت سامية كما أوصيتك ؟

قال :

— نعم .. عاملتها كأنها لا تزال فى العاشرة من عمرها .. واعتذرت لها ألف مرة عن ضربى لها .. وأقنعتها انى معجب بصوتها .. رغم انى متأكد أنى سأضربها مرة أخرى لو سمعت صوتها ..

قلت :

— وماذا كان تأثير كل ذلك عليها ؟

قال :

— يبدو أنها بدأت تحبنى أكثر .. لقد طلبت منى مفتاح الدولاب .. وأخرجت كل المجلات القديمة وأخذت تتصفحها .. ثم استمعت هذا الصباح الى أسطوانة أم كلثوم دون أن تبكى .

قلت :

— عال ..

وعاد يقول فى لهفة :

— ولكن سامى ..

قلت :

— اطمئن .. عد الآن الى دكانك . وسأكون ضمن المدعوين فى حفلة الساعة الثامنة .

وهز رأسه فى أسى وخرج ..

ولم أفكر فى سامية ..

ولكنى كنت أفكر فى سامى .. وكنت أسأل نفسى فى لهفة : هل سأراه مرة ثانية !

— ١٠ —

بقيت فى الفندق طول النهار أفكر بنصف عقلى فى الصدمة الثانية التى أعدها لسامية ، وأفكر بالنصف الآخر فى سامى ..

كنت فى انتظـــار أن يزورنى سامى .. وكنت متلهفـــا على أخباره والاطمئنان عليه .. كنت أعلم أنه يجتـــاز الآن مرحلة الطفولة بالنسبة للحياة الجديدة التى فتحتها أمام عينيه .. حياته كابن لأم زنجية .. حياة الماتيس .. وكنت أخاف عليه من هذه الطفولة .. أخاف ألا يحتمل عقله هذه الحياة الجديدة ، فيعود ويختل ، ويضعف أمام عقله الباطن ..

ومرت الساعات ولم يأت سامى ..

ترى أين هو ؟

هل أخذ بيندا وفر من المدينة ، حتى لا يواجه الناس الذين يعرفهم ، وهو نصف زنجى ؟

هل يحاول أن يتحرى صدق المعلومات التى أدليت له بها ؟

لا أدرى ..

وفى الساعة السابعة والنصف مساء كنت مرتديا ثيابى .. بدلة كاملة غامقة اللون ، رغم اللهب الذى يفح من الأرض ، وخرجت من الفنـــدق ، وفى يدى حقيبتى الطبية الصـــغيرة ،



واتجهت الى بيت سـليم .. بيت العائلة التى تحمـل كل عقد افريقيا النفسية ..

واستقبلنى سليم على الباب جزعا ، وقال ولهجته اللبنانية ترتعش بين شفتيه :

— لا أدرى لماذا طاوعتك .. ان هذه الحفلة مهزلة .. انها فضيحة ستتحدث عنها كل الجالية اللبنانية فى باماكو ..

قلت فى اختصار :

— المهم هو شفاء سامية ..

ثم استطردت فى لهفة :

— هل جاء سامى ؟

وأجاب كأنه يندب أخاه :

— أبدا .. لقد بحثت عنه فى المدينة كلها ، ولم أجده ..

ودخلت وراءه ..

وكان سليم قد أعد صالة البيت كما أوصيته .. أقام منصة كبيرة فى الصدر ، جلس عليها الموسيقيون .. وصف أمامها مقاعد المدعوين ، حتى بدت كمسرح صغير ..

وتلفت الى وجوه المدعوين ، وقدمنى سليم الى بعضهم باسمى كاملا .. و .. من مصر .. انهم جميعا يحملون طابعا واحدا رغم اختلاف أشكالهم .. كلهم يحملون فوق وجوههم هذه الصرامة ، التى تدل على الصراع العنيف الذى عاشوا فيه ، وهذه القسوة التى جمعوا بها أموالهم ، وهذه الآلية التى تسيطر عليهم وتخنق عواطفهم .. كل منهم آلة تجمع النقود .. وعيونهم باردة .. وابتساماتهم لزجة .. ويشربون النبيذ الذى قدمه لهم صاحب البيت ، فى شراهة ، كأنهم يبحثون عن الدفء فى هذا الجو الحار .. وحتى أفراد الفرقة الموسيقية ، رغم أشكالهم المضحكة المتباينة ، تعلو وجوههم نفس الصرامة ، والعيون الباردة ، والابتسامات اللزجة .. ويعزفون على آلاتهم كأنهم يعزقون الأرض .. بعنف .. وبلا احساس .. وتحت مقعد كل منهم ، كأس النبيذ !

وبدأ المدعوون الذين عرفنى بهم سليم يسألوننى عن مصر ، ويبدون حماسا مفتعلا ، مغالى فيه ، للعروبة ..

وأخذت الفرقة الموسيقية تعزف أحد البشارف القديمة .. وتقاسيم على العود .. وعلى القانون ..

وأنا أتلفت بين الحين والحين الى سامية ..

كانت سامية جالسة فى ركن بعيد من الصالة .. لم تكن تشترك فى استقبال المدعوين ولا فى الحفاوة بهم .. ولم تكن فى حالة تسمح لها باستقبالهم أو الاحتفاء بهم .. كانت باهتة اللون .. شفتاها ترتعشان رعشة خفيفة .. وتدور بعينيها فى نظرات حذرة مترددة ، كأنها تبحث عن شىء ..

وكنت أعلم الحالة التى تعانيها ..

انها الآن تواجه لأول مرة حلمها الكبير الذى عاشت فيه طفولتها .. عاشت فيه كحقيقة .. ولكنها بدأت تشك فى حلمها ، بدأت تشك فى الحقيقة الوهمية .. فان البيت لم يشهد حفلة من هذه الحفلات الا فى أيام أبيها .. فاذا كان الحلم حقيقة ، فلابد أن يكون أبوها موجودا فى الحفل .. لو رأت أباها لتأكدت لها الحقيقة .. ولن تجد أباها .. ولن تجد الحقيقة .. ستعلم أن هذه حفلة من حفلات حلمها الكبير التى تغنى فيها .. ولكن أباها ليس موجودا .. وهى تدور بعينيها تبحث عنه .. تبحث عن الحقيقة .. ولن تجد أباها .. ولن تجد الحقيقة .. ستعلم أن ما تبحث عنه ليس حقيقة .. أنه وهم .. فاذا اكتشفت أنه وهم .. أفاقت !

وظلت سامية تطلق حولها هذه النظرات الحذرة المترددة ..

ووجهها يزداد بياضا ، وشفتاها تزدادان ارتعاشا ، وعيناها تزدادان اتساعا .. الى أن انتهت الفرقة الموسيقية من عزف البشارف والتقاسيم .. وبدأت أصوات المدعوين ترتفع بالكلام المخمور ، والضحكات الصاخبة .. فهمست فى أذن سليم :
— قم وقف على المنصة ، وأعلن أن سامية ستغنى أغنية لأم كلثوم ..
وقال سليم فى حدة :
— مستحيل .. لقد غيرت رأيى .. لن أساعدك فى خططك .. انى لا أفهمك .. ولا أريد أن أفهمك .. زهقت يا أخى ..
قلت :
— قم .. من أجل سامية ..
قال فى اصرار :
— أهون على أن تموت ، من أن تغنى أمام الناس ..
قلت :
— انها لن تغنى ..
قال :
— من أدراك ؟
قلت :
— انى متأكد ..
قال :
— ولو .. لقد ضيعت منى أخى .. ولن أسمح لك بأن تضيع أختى ..
قلت فى لهجة حادة :

— هذا ليس وقت جدال .. قم وقدم سامية للغناء .. والا سأقدمها أنا ..

قال :

— انى أمنعك ..

قلت :

— لن تستطيع .. لقد أصبحت أنا المسئول عن سامية .. بموافقتك ..

قال فى تردد :

— لقد سحبت موافقتى ..

قلت :

— تذكر أن كل ما استنتجه عن حالة سامى قد ثبتت لك صحته .. وهذا يكفيك لتجازف معى فى علاج سامية ..

ونظر الى سليم نظرات حائرة ، وواجهته بنظرات جامدة صارمة .. ثم تردد قليلا ، ورفع كأسه وقذف بكل ما فيه فى جـوفه ، ثم قام ووقف على المنصـة ورفع ذراعيه ليسـكت المدعوين ، ثم قال بصوت محشرج ، وهو ينظر فى وجوه الناس نظرات حادة متحدية ، كأنه يتهددهم :

— اخوانى .. أقدم لكم الآن مفـاجأة .. أختى سـامية ستغنى لكم أغنية لأم كلثوم ..

ومرت لحظة بهت الناس فيها .. لم يكن أحد منهم يعلم أن سامية تستطيع أن تغنى .. ثم التفتوا جميعا ناحية سامية والدهشة لا تزال عالقـة فى عيونهم .. ثم بدأوا يصـفقون ،

تصفيقا حادا متواصلا ، وقد علت شفاههم ابتسامات ساخرة ، كأنهم على وشك أن يشاهدوا مسرحية مضحكة ..

وارتدت سامية الى الوراء عند ما سمعت صوت التصفيق ، وتشبثت بمقعدها ، وفى عينيها نظرات جزعة .. لقد اختلطت فى خيالها — مرة ثانية — حركة الأيدى وهى تصفق ، بحركة يدى سليم عند ما كان يصفعها اذا همت بالغناء .. ولكن عقلها الواعى تنبه الى أن سليم قد اعتذر لها عن صفعها ، ووعدها ألا يعود ويضربها ، وأقسم لها أنه معجب بغنائها .. فعادت واعتدلت فى جلستها .. وانطفأت نظرات الخوف فى عينيها ، وحلت محلها نظرات التردد والشك .. ووضعت أصبعها فى فمها كالأطفال ، ثم رفعته من فمها .. كأنها تنبهت الى أنها ليست طفلة !

لقد بدأت المعركة تقترب الآن من ذروتها ..

معركتها النفسية ..

المعركة بين عقلها الباطن الذى لا يزال يعيش فى عمر العاشرة ، ويسيطر عليها .. وبين عقلها الواعى الذى يحاول أن يتحرر من هذا الوهم الذى عليه عليه العقل الباطن ..

وظلت فى مكانها ..

وأنفاسها تتردد فى حشرجة كأنها تخرج من منفاخ مثقوب .

ووجهها أصبح فى لون الفراغ ..

وعيناها تلمعان بالشك والحيرة ..

وجاء سليم وجذبها من ذراعها فى رفق وهو يقول :

— تعالى يا سامية .. الناس ينتظرونك !

واستسلمت لجذبة أخيها .. وقامت .. وسارت بين المدعوين متخشبة كأنها تسير فى نومها .. ساهمة .. مبهوتة .. أنفاسها تخرج من المنفاخ المثقوب ..

وساعدها سليم على ارتقاء المنصة ..

حملها حملا ، وأوقفها أمام الناس ، كأنه يزرعها فى الأرض ..

وظلت سامية واقفة تنظر الى الناس فى حيرة ، كأنها لا تدرى لماذا وقفت أمامهم .. والعرق البارد يتقصد فوق وجهها المريض .. وسكت الناس فى انتظار أن تبدأ فى الغناء .. وهى لا تزال تنظر فى وجوههم فى حيرة .. نظرات شاردة .. مترددة .. ثم بدأ الناس يتصايحون :

— غنى يا سامية .. أسمعينا يا سامية ..

وهى ترتعش فى وقفتها .. والبلاهة ترتسم على كل ملامحها ..

وكنت أعلم أنها لا تسمع تصايح الناس .. ولكنها تسمع صياحا آخر ينطلق فى داخلها .. انها فى هذه اللحظة معزولة عزلا تاما عن عالمها الخارجى .. وتعيش بكل خلجاتها وبكل قواها فى عالمها الداخلى .. تعيش فى معركتها النفسية .. وهى معركة عنيفة قاسية ، تبستنزف كل قطرات الحياة منها ..

وأحسست بالشفقة تمزق قلبى وأنا أرى سامية فى هذا الموقف ، وأرى مدى ما تعانيه من عذاب .. وبدأ عقلى يتحرك

بسرعة باحثا عن وسـيلة أخفف بهـا من حـدة المعركة التى تعانيها .. ولم تكن هناك أية وسـيلة .. كان يجب أن أتركهـا تجتاز المعركة وحدها .. وكنت اعلم انه.كلما احتدمت المعركة وازدادت عنفا وقسوة ، اقتربت سامية من الشفاء ..

وأفراد الفرقة الموسـيقية ينقرون على آلاتهم نقرات غير منتظمة ، اسـتعدادا لعزف اللحن الذى تغنيه سامية .. هـذه النقرات تزيد من حدة المعركة التى تجتازهـا سامية .. انهـا تسقط على أعصابها كقطع الطوب فتثيرها .. وتسقط فى عقلها الواعى فتزيده حماسـا .. وتسقط فى عقلها البـاطن فتتحرك ذكرياتها القديمة .. وخفت على سامية.. خفت عليها ألا تتحمل كل هذا فتنتهى فى لحظة الى الجنون المطلق ..

وكتمت خوفى ، وأنا أدعو لها فى سرى .. واضع عينى فى عينيهـا وهى واقفة أمامى فوق المنصة ، وأبتسم لها مشجعا .. ولكنها لا ترانى .. انى متأكد أنهـا لا ترانى .. نظراتهـا تائهة شاردة ..

ومال عازف العود الى الأمام وسأل سامية فى استخفاف :

— ماذا تغنين ؟

ولم ترد سامية عليه .. لم تسمعه .. انهـا واقفة والبلاهة ترتسم على كل ملامحها ..

واشتد تصايح النـاس من حولهـا .. وبدأوا يتبادلون النـكات .. نكات ثقيلة سـمجة .. ويضحكون .. ضحكات عالية منفرة ، كصراخ الرعب .. وضحكاتهم تنكس على سامية

كضربات المعاول .. تهدها .. فتترنح فى وقفتهـا .. وتشتد لمعة الحيرة فى عينيها .. وتبرز خطوط البلاهة فى ملامحها

وعاد عازف العود يسأل سـامية وهو يشارك النـاس فى ضحكاتهم :

— ماذا تغنين ؟

ولم ترد عليه .. لم تسمعه ..

وتقدم سليم ، ووجهه مزرود من الغيظ ، ومن المهانة التى يحس بها ، وقال لعازف العود :

— اعزف « غلبت اصالح فى روحى ..

ونظر اليه عازف العـود فى استخفاف ، ثم بدأت الفـرقة الموسيقية تعزف مقدمة لحن « غلبت اصالح فى روحى » ..

وانتبهت سامية فجأة ..

أخذت تتلفت حواليها كأنها لا تدرى من أين تنبعث هذه الموسيقى .. وفى عينيها خوف .. خوف كبير ..

وأعادت الفرقة الموسيقية عزف مقدمة الأغنية ..

وفتحت سامية فمها ..

وسقط قلبى ..

خفت أن تغنى .. لو غنت ، فمعـنى ذلك انتصـار العقل الباطن .. معـنى ذلك أنها لا تزال تعيش فى عمـر العاشرة .. العمر الذى توقف عنده نمو شخصيتها ..

ولكنها ظلت مفتوحة الشفتين ..

لم تغن ..

واشتدت الضحكات الصارخة من حولها ..
ضحكات ..
ضحكات ..
وأفواه مفتوحة الى آخرها ..
وعيون ينطلق منها بريق مخيف ..
ورءوس تمتد اليها كأنها تريد أن تأكلها ..
وأنا أنظر الى سامية بعينين ثابتتين ، مدققتين .
وعادت تترنح ترنحات عنيفة ، ذات اليمين ، وذات اليسار .. والى الخلف ، والى الأمام .. كأنها تحاول أن تهرب ، وكأن قدميها مقيدتان فى الأرض ..
وفمها لا يزال مفتوحا .. ووجهها الباهت يرتعش ..
ثم فجأة ..
توقفت عن الترنح ..
وانطبق فمها ..
ووقفت ارتعاشة وجهها ..
وهدأت النظرات فى عينيها ..
وانتظمت أنفاسها ..
كأنها أفاقت من حلم ..
وبدأت تنظر الى الناس كأنها تعرفهم واحدا واحدا .. نظرات مسكينة مريضة ..
ثم جرت دموع صامتة فوق عينيها .. وهى لا تزال تنظر

الى الناس من خلال دموعها ، كأنها تعـرفهم واحدا واحدا ، وكانها تلومهم ..
والفرقة الموسيقية لا تزال تعزف لحن « غلبت اصالح فى روحى » ..
والضحكات لا تزال تنطلق فى قسوة ..
وسليم واقف خلف سامية فوق المنصـة ، ودموع الغيظ والمهانة تملأ عينيه
وأغمضت سامية عينيها ..
وترنحت فى وقفتها ..
وفجأة ..
سقطت على أرض المنصة ، فاقدة الوعى ..
وسكتت الموسيقى ..
وسكتت الضحكات ..
ومرت فترة صمت رهيبة ..
واستراح قلبى ..
لقد نجحت الصدمة ..
وقمت من مقعدى سريعا ، وقفزت فوق المنصـة وتعاونت مع سليم على حمل سامية الى غرفتها والناس من ورائنا يلغطون بكلام كثير .. ثم طلبت حقيبتى الطبية ، وحقنتها بالكورامين لتنشيط القلب ، وجلست بجانب سريرها الى أن تفيق ..
وكنت أعلم ما حدث لها بالضبط ..
لقد رأيته يحدث على وجهها ..

لقد صعدت الى المنصة وهى فى شك من أنها تستطيع أن تغنى .. فى شك من حلمها الكبير الذى أصبح حقيقة تعيش فيها ، وأوقفه نمو شخصيتها .. ويحاول العقل الباطن أن يتغلب على هذا الشك .. أن يقنعها بأنها تستطيع أن تغنى ، وأن يدفعها الى الغناء فعلا .. وذلك فى الوقت الذى كان فيه العقل الواعى يحاول تأكيد هذا الشك ، ويحاول أن يمنعها من الغناء .. وفى خلال المعركة بين العقل الواعى والعقل الباطن ، كانت نقرات الآلات الموسيقية ، والضحكات الصاخبة المرعبة تساعد العقل الواعى .. لأنها أصوات تصل الى سامية من خارجها لا من داخلها ، فتلمس العقل الواعى .. وكلما هم العقل الباطن أن ينتصر زادت النقرات والضحكات فى تنبيه العقل الواعى .. الى أن انتصر أخيرا .. هزم العقل الباطن وأجبره على التنازل عن سيطرته .. عن عرشه !

وعندما انتصر العقل الواعى ، عادت شخصية سامية الى النمو ..

ونمت فجأة ..

قفزت خمسة عشر عاما مرة واحدة .. من سن العاشرة الى سن الخامسة والعشرين .. أصبحت ترى الأشياء حولها ، وترى نفسها ، بشخصيتها الحقيقية .. شخصيتها الكاملة السليمة ..

ولم تحتمل سامية هذه القفزة ..

لم تحتمل هذه النقلة المفاجئة من عمر الى عمر ..

فأغمى عليها ..

والمصاب بحالة التوقف فى نمو الشخصية ، عندما يسترد النمو الطبيعي للشخصية .. أى عندما يشفى من حالته .. لاينسى ماضسيه .. ابدا .. انه يذكر كل شيء فى الماضى كأنه لم يكن انسانا شاذا مريضا .. وكل ما يحدث له أن تصرفاته بعد شفائه تتخذ طابعا طبيعيا .. يصبح انسانا عاديا .. يتصرف التصرفات التى عليها عليه عمره ، لا عمر الطفــل الذى توقف عنده نمو الشخصية ، وكل ما ينقصه هو بعض التجارب التى كان يجب أن يمر بها لو كان انسانا عاديا ، وهى تجارب يمكن أن يكتسبها بسرعة ..

هذه هى حالة سامية ..

وعندماتفيق لن تواجه مشكلة فقدان الذاكرة بالنسبة لماضيها .. بل لن تحس اطلاقا بأنها كانت مريضة وشفيت .. كل ماهنالك أنها ستبدأ تحكم على تصرفاتها الماضــية ، بأنها كانت خاطئة .. تصرفات عيال .. ثم تبدأ فى محاولة تصحيح هذه التصرفات .. ستعرف أنها كانت سيئة التصرف عنــدما كانت تبكى وتصرخ عندما تسمع صوت أم كلثوم .. وستعتبر أن ذلك كان انفعالا مغالى فيه سببه اعجابها بصوت أم كلثوم .. وستنتبه الى أنه ليس من اللياقة أن تجلس واصبعها فى فمها كما كانت تفعل .. ولن تعتبر أن ذلك كان مرضا أو شذوذا فى شخصيتها ، بل مجرد عادة سيئة يجب أن تتخلص منها .. وستواجه ببساطة حلمهــا الكبير .. ستعترف أنها كانت تصحب أباها الى الحفلات التى تقام له فى لبنان ، وأنها كانت تغنى أمام الجمهور .. وستعترف

لنفسها أن أباها كان يستحضر لها مدرسين خصوصيين لتدريبها على الغناء .. وستعترف أيضا بأنها كانت تحلم — وهى صغيرة — بأن تكون مغنية مشهورة .. ستواجه كل ذلك ببساطة ، وستعترف بأن هذا الحلم قد ولى ، كما ولت طفولتها ، وأنها الآن لاتريد أن تكون مغنية ، ولا تريد أن تغنى ، الا لنفسها ، كما تغنى أى فتاة فى عمرها لنفسها .. بل ستعترف أنها جاءت الى فى الفندق وطلبت منى أن أصحبها الى لبنان ، وألى أطلعتها على الصحف القديمة التى نشرت صورتها وستعترف أن كل ذلك كان مجرد تصرفات خاطئة ..

ستفيق سامية كأنها لم تكن مريضة أبدا ..

ولم أحاول أن أفيق سامية بالمنبهات ، تركتها ترتاح فى نومها ، ولو أنى أعلم أنه نوم مزعج وأسمع أنفاسها تتردد أمامى فى ضيق .. كأن شيئا يحاول أن يخنقها ..

وبعد أكثر من ساعة ، فتحت سامية عينيها ، وتلفتت حواليها ، وعندما رأتنى بجانبها ، انتفضت مذعورة ، جالسة فوق السرير ، وقالت فى صوت محشرج :

— ماذا حدث ؟ ..

قلت ببساطة وأنا أبتسم لها :

— أغمى عليك ..

قالت :

— لماذا ؟

قلت :

— لأنك ضعيفة ..

قالت فى غضب :

— وكيف يحملنى سليم ويوقفنى أمام الناس لأغنى لهم .. انه مجنون ..

قلت وأنا محتفظ بابتسامة طيبة :

— لقد قال لى انك تجيدين الغناء ، وانك سبق أن غنيت أمام الجمهور فى بيروت ..

قالت :

— كان ذلك زمان .. وأنا طفلة .. ومنذ أكثر من خمسة عشر عاما لم أغن .. سليم نفسه كان يمنعنى من الغناء ..

قلت :

— ربما أراد أن يقدم مفاجأة لمدعويه ..

قالت :

— لابد أنه كان سكرانا ..

قلت :

— لقد كان سكرانا فعلا ! ..

وكان سليم فى هذه الأثناء خارج الغرفة .. ربما كان فى المطبخ ، أو يودع آخر مدعويه .. ثم جاء الى الغرفة يسير على أطراف أصابعه وفوجىء بأخته تبحلق فى وجهه غاضبة ..

وقالت له سامية فى حدة :

— هل جننت .. كيف تفعل ذلك بى ..

وغمزت لسليم بعينى ، وفهم غمزتى ، فقـال وهو لم يفق بعد من دهشته :

— آسف .. حقك على يا أختى ..

قالت ولهجتها تعبر عن أنها تحدث أخاها الأصغر :

— هذه أول مرة تسكر فيها الى هذا الحد ..

وقال سليم وابتسامة خفيفة تعلو شفتيه :

— آسف ..

وقمت واقفا وأنا أقول لها :

— الآن .. يجب أن ترتاحى .. وغدا يجب أن تذهبى الى طبيب ليصف لك دواء مقويا ..

ثم فتحت حقيبتى ، وناولتها قرصين صـغيرين من دواء « البرجال » المنوم ، وقلت لها :

— هذه الحبوب لتساعدك على النوم ..

وانتظرت الى أن ابتلعت القرصين ، ثم مددت يدى مصافحا ، وأنا أقول لها :

— تصبحى على خير ؟ ..

وشدت على يدى وهى تقول فى لهجة حازمة مستقيمة :

— شكرا يا دكتور .. هل نراك غدا ؟

قلت :

— من سوء حظى .. مضطر أن أسافر غدا

قالت :

— مع السلامة .. لا تنسنا فى مصر ..

قلت :

— لن أنساكم أبدا .. فى أى مكان ..

وتمنيت أن أنحنى لأقبلها فى جبينها .. لقد شعرت فى هذه اللحظة أنها ابنتى .. هذه الشخصية الجديدة أنا الذى صنعتها .. أنا الذى اكتشفتها .. انها ابنتى .. وقد يكون فى ذلك غرور الطبيب .. ولكن لا شىء أمتع فى حياة الطبيب من لحظات غروره وثقته بنفسه عندما ينجح فى علاج حالة تعرض عليه ..

وخرجت من الغرفة .. .

وأطلقا سليم نور حجرة سامية ، وخرج ورائى وهو يهمس :

— ماذا حدث يا دكتور ..

قلت :

— هل توصلنى الى الفندق ؟ ..

قال فى حماس :

— طبعا ..

قلت :

— سأروى لك كل شىء فى السيارة ..

وركبت بجانب سليم ، وقاد سيارته وهو ينظر الى متلهفا .. وتجاهلت لهفته وقلت له :

— هل نستطيع أن نصل الى القرية الآن ؟

قال فى دهشة :

— لماذا ؟

قلت :

— لعل سامى ذهب الى هناك .. انى أريد أن أراه قبل أن أســافر ..

وسكت سليم ، وهو يقود السيارة فى اتجاه الجسر المقام على نهر النيجر ، والطريق الطويل الذى يشق الغابة ويؤدى الى القرية ..

وأخذت طول الطريق أشرح له حالة سامية ، وكيف أعددت لها الصدمة التى أعادت لشخصيتها نموها الطبيعى ، وهو يستمع الى مبهوتا كأنى أطلعه على عالم جديد لم يتصوره أبدا ..

ثم قال وهو لا يزال مبهوتا :

— هل أقول لسامية هذا الكلام ..

قلت :

— لا .. اننى أطلع المريض على حقيقة حالته عندما يفيد اطلاعه فى علاجه .. كما فعلت مع سامى .. ولكن سامية ليست فى حاجة الى معرفة حقيقة المرحلة التى كانت تجتازها .. وقد تريكها معرفتها بها .. ولكن .. بعد عمر طويل .. عندما تشيخ وتشيخ سامية معك .. تســتطيع أن تروى لها كل ما حــدث كأسطورة ! ..

وسكت سليم وهو لا يزال هائما فى دهشته ..

ووصلنا الى القرية ..

انها قطعة من الليل ..

لا شىء يبدو منها .. حتى أكواخها لا تبدو الا كأشــباح رابضة فى الظلام ..

وحمل سليم مصباحه البطارية الذى يحتفظ به دائما فى درج سيارته .. وسار بجانبى ، تتقدمنا الحلقة الصغيرة المضيئة التى يطلقها المصباح ..

ولم نقابل أحدا من أهل القرية .. كأن أهلها هجروها ..

واتجهنا الى كوخ الكاباكا ، وقلبى يرتعد من الرهبة .. وسلط سليم مصباحه على باب الكوخ .. ثم نقر عليه نقرات خفيفة .. ثم اشتد فى النقـر حتى أصبح يضرب البـاب بكلتا يديه .

وفجأة انفتح الباب وانطلق منه عملاق فى لون الظلام .. عار الا من قطعه صغيرة من القماش الأبيض يلفها حول وسطه ويتركها تتدلى فوق فخذيه .. وبحركة مفاجئة خطف المصباح من يد سليم ، وسلطه على وجهنـا .. وهو يصيح فى صـوت قوى ، وبلغة « الولف » :

— من ؟

وقال سليم باللغة الفرنسية فى صوت مرتعد :

— نحن ..

ورأيت وجه الكاباكا فى ضوء المصباح ، يتمعن وهو ينظر الى سليم ، ثم يخف امتعاضه وتعلوه ابتسـامة ساخرة ، وهو ينظر فى وجهى ، وقال بلهجة ليس فيها ترحيب :

— ماذا تريدان ؟

قلت وأنا أحاول أن أكون رقيقا :

— جئنا نسأل عن سامى ..

وارتفع الغضب على وجه الكاباكا ، وقال لى كأنه يتهمنى :
— سامى ليس هنا .. ولا بيندا !
ثم ارتفع صوته وقال لى فى حدة :
— لقد جئت الينا لتنقذ سامى .. فضيعت سامى ، وبيندا ..
قلت وقد أحسست أنه يهيننى :
— سامى أنقذ .. انه الآن انسان كامل ..
قال :
— لن أصدقك ولو أقسمت لى .. كل ما أصدقه أن ابنتى ليست هنا .. ولا سامى .. وقد أرسلت ثلاثة من أبنائى للبحث عنهما .. ولم يعودوا بعد .. ان القبيلة كلها انقلب حالها ، وفقدت هدوءها منذ جئت الينا من مصر ..
قلت فى اصرار :
— ابنتك ستعود اليك .. وسامى !
قال :
— قلت لك انى لن أصدقك ..
قلت بسرعة :
— صدق السماء .. صدق البرق .. السماء هى التى أمرتك بأن تطلعنى على السر الكبير ..
ونظر الى الكاباكا نفس النظرة الساخطة المتمضة ، ثم قال باستخفاف متجاهلا قولى :
— هل تريدان شيئا آخر ؟
ووقفنا صامتين ..

وعاد الكاباكا يقول وهو أكثر حدة وضيقا :

— قلت لكما ان سامى ليس هنا ..

وقلت وأنا أبادله حدته :

— أسعدت مساء .

ومد سليم يدا مرتعشة وأخذ المصباح من يد الكاباكا ، وسار بجانبى .. وسمعنا باب الكوخ يصفق وراءنا فى عنف ..

وهمس سليم فى صوت مرتجف :

— انه غاضب ..

قلت وقد هدأت حدتى :

— له حق ..

وركبنا السيارة ، وقطعنا مسافة طويلة ونحن صامتان ، ثم قال سليم فى صوت متردد كأنه يخشى أن يغضبنى :

— ترى هل تدرى ما يمكن أن يحدث لسامى ؟ ..

قلت باقتضاب وقد هدنى التعب :

— لا .. لا أدرى .. ولكنى واثق أنه الآن أحسن حالا ، وأقدر على التصرف مما كان ..

وسكت سليم ..

قطعنا بقية الطريق صامتين .

وعندما وصلنا الى الفندق ، وقبل أن أنزل من السيارة .. قال سليم باللغة الفرنسية ، وأنا أعرف أننا نستعمل اللغة الأجنبية دائما عندما نريد أن نعبر عن شىء يحرجنا أن نعبر عنه

باللغة العربية .. لأن اللغة الأجنبية بالنسبة لنا أقل صراحة من اللغة العربية :

— دكتور .. هل أستطيع أن أسألك كم أتعابك ..

وابتسمت ابتسـامة متعبـة ، وقلت وأنا أضع قدمى على الأرض :

— لا شيء ..

قال :

— ولكنك طبيب محترف .. وقد تعبت معنا ؟

قلت :

— وأنتم تعبتم معى بكرمكم ومصـاحبتى فى مشاهدة باماكو ..

قال :

— ولكن .. دكتور ..

قلت أقاطعه :

— تصبح على خير .. هل سأراك قبل أن أسافر ..

قال فى حماس :

— طبعا ..

وصعدت الى غرفتى ، قبل أن يعود ويسألنى عن أتعابى ..

وكانت الساعة الخامسة صباحا ..

ونمت ..

***

لم أنم سوى ساعتين ، وقمت فى الساعة الثامنة ، وتناولت افطارى فى الغرفة ، وأنا أعد حقائبى بسرعة ، وأعد نفسى لرحلة طويلة .. فقد كان على أن أستقل طائرة « اير افريكا » الى دكار .. ثم أستقل طائرة « اير فرانس » الى الدار البيضاء .. ثم طائرة أخرى الى روما .. ثم طائرة شركة مصر الى القاهرة .. ثلاث ليال سأقضيها طائرا !

وخرجت من غرفتى ، ووجدت سليم ينتظرنى فى بهو الفندق ووجهه مرهق وعيناه غائرتان .. وقلت له وأنا أعرف ما يشغله :

— هل عاد سامى ؟

وقال فى يأس :

— لا ..

قلت وأنا أكاد أشاركه يأسه :

— وكيف حال سامية ؟

وعلت وجهه ابتسامة صغيرة :

— أظن أنها أصبحت انسانة أخرى .. تصور .. لقد قامت فى الصباح وأخذت تشرف على نظافة البيت .. عمرها ما فعلت هذا ..

وابتسمت معه ابتسامة صغيرة أيضا .. فلم نكن نستطيع — لا أنا ولا هو — أن نبتسم ابتسامة كبيرة ، الا اذا عثرنا على سامى .. أو على الأقل عرفنا شيئا عنه ..

وصحبنى سليم الى المطار ، وبدأ يساعدنى فى انجاز جواز سفرى ، وتذكرة الطائرة .. وأنا أتلفت باحثا عن سامى ..

والواقع أن سليم لم يكن يساعدني.. كان يقيم ضجة كبيرة ويدخل في مشادات عنيفة مع موظفي الجمرك والمطار ، لا مبرر لها .. ولكنه كان يريد أن يثبت لي أنه يساعدني ..

وقبل أن أخرج من الجمرك ناولني سليم لفافة كبيرة كنت قد رأيتها طول الوقت في السيارة .. وقلت في دهشة :

— ما هذا ؟

قال :

— هدية صغيرة ..

وحاولت أن أعترض ، ولكنه قال في رجاء صادق :

— أرجوك يا دكتور ..

وخرجت من الجمرك أحمل هدية سليم ، وأنا لا أزال أتلفت باحثا عن سامي .. لعله يأتي في آخر لحظة ..

وخرج معي سليم ، حتى أوصلني الى باب الطائرة .. ثم مد يده يصافحني قائلا :

— شكرا يا دكتور ..

ثم لم يتمالك نفسه ، فاحتضنني ، وقبلني في كتفي ، والدموع تبرق في عينيه .. ان سليم رغم كل شيء انسان عاطفي ..

وربت على ظهره .. وأنا أقول له :

— اطمئن .. سامي سيعود !

ثم صعدت الى الطائرة ، وقبل أن أدخل من بابها ، التفت

ألقى نظرة أخرى على المطار .. لم أكن أنظر الى سليم ، ولكنى كنت أتعلق بآخر أمل ، لعلى ألمح سامى ، جاء يودعنى .

وأغلق باب الطائرة ..

وزحفت على الأرض ..

ثم حلقت ، وهى ترتعشّ كالعصفور .. انها طائرة «داكوتا» صغيرة ، جافة متعبة ، رغم أن « اير افريكا » فرع من « اير فرانس» .. ولكن لمجرد أن طائراتها تعمل على الخطوط الداخلية فى افريقيا السوداء ، وقد يركبها الزنوج .. كان يجب أن تكون طائرات حقيرة متعبة ..

ولم أحاول أن أنظر الى الغابات من تحتى .. كنت طوال الوقت أستعيد تفاصيل رحلتى فى افريقيا ، والوجوه التى قابلتها.. لقد كانت رحلة مثيرة ، ووجوها نادرة .. وقد أكتشفت شيئا فى افريقيا .. شيئا لم يخطر على بال الرحالة ستانلى أن يكتشفه .. ولكن اكتشافى لم يتم .. لن يتم اكتشافى الا اذا علمت ما حدث لسامى ..

— ١١ —

مضت عشرة شهور على عودتى من افريقية ..

عدت الى عيادتى فى ميدان سليمان باشا أستقبل مرضاى .. وأنا لا أسميهم مرضى ، ولكنى أسميهم « حالات » .. ورغم كثرة الحالات التى عرضت على منذ عودتى الى القاهرة الا أننى لم أستطع أن أفقد اهتمامى بالحالتين اللتين اكتشفتهما فى افريقيا .. حالة سامى .. وحالة سامية .. خصوصا حالة سامى ..

والسبب فى تركيز اهتمامى على حالة سامى ، أنها حالة لاتمثل فردا ، ولكنها تمثل مجتمعا .. مجتمع كامل قائم فى افريقيا وفى آسيا هو مجتمع الأولاد المخلطين ، الذين يختلط فى عروقهم الدم الأبيض والدم الملون .. أو مجتمع « الماتيس » كما يسمى فى افريقيا ..

وبلغ من شدة اهتمامى بعقدة هذا المجتمع انى فكرت فى أن أكتب بحثا علميا أقدمه فى اجتماع مؤتمر الأطباء النفسانيين القادم .. بل انى بدأت فعلا فى كتابة هذا البحث ، ووضعت عنوانا له « عقـــدة الماتيس » .. ليالى كثيرة قضيتها ساهرا فى بيتى بعد انتهاء عملى فى عيادتى ، وجلد النمر والتمثال الأسود



الصغير ، اللذان أهداهما لى سليم ، موضوعان أمامى .. أعد هذا البحث .. وأراجع المذكرات التى كتبتها عن سامى ، وعن وضع الماتيس فى المجتمع الافريقى ، وأقلب فى الصور الفوتوغرافية التى التقطتها أثناء رحلتى ، وأبحلق فى الوجوه التى صورتها — ومنها صورة سامى — كأنى أحاول أن أقرأ فيها ما لم أقرأه فى الكتب العلمية الكثيرة التى بحثت هذا الموضوع ..

وأثناء اعدادى لهذا البحث ، خطر لى خاطر غريب ، اعتبره خاطرا جريئا من الناحية العلمية ..

فقد سبق ان قلت ان عقدة الماتيس ، هى عقدة الوقوف بين مجتمعين متعارضين .. مجتمع البيض ، ومجتمع السود .. عقدة الوقوف فى الوسط .. فلا يستطيع الفرد من الماتيس أن يتقدم الى الأمام كى ينضم الى البيض ، أو يتراجع الى الخلف لينضم الى السود ..

ويؤثر هذا الموقف فى كل كيانه .. يؤثر فى عقليته .. فى عواطفه .. فى تصرفاته .. ويحدد له مركزا اجتماعيا خاصا ، يجد نفسه مجبرا على أن يبقى فيه ..

ولكن ..

كيف انتهى الماتيس الى هذا الموقف .. هل يكفى — من الناحيه العلمية لا الاجتماعية — أن يولد من أب أبيض أو أم زنجية ، حتى يجد نفسه فى هذا الموقف ؟

لا ..

لقد انتهى الماتيس الى هذا الموقف لأنه فقد القدرة على الاختيار بين المجتمعين الأبيض والأسود .. فقد ارادة الاختيار .

كيف فقدها ؟

سحبها منه المجتمع الذى يحيط به منذ أن يولد .. فالطفل الماتيس يفتح عينيه على الحياة ، فيجد مجتمع البيض يرفضه ، ومجتمع السود يرفضه .. وتكون ارادته لم تتكون بعد بحيث يستطيع أن يفرض نفسه ، أو يفرض وجوده على أحد المجتمعين ، وأن يقاوم هذا المصير الذى يفرضانه عليه .. أى أنه يفقد منذ طفولته ارادة الاختيار ، وارادة مقاومة المصير .. ويشب ويكبر وهو فاقد هذه الارادة ، مستسلم لهذا الوضع الذى فرض عليه ...

ولكن ..

لنفرض أن طفلا من الماتيس قد ولد ، وفتح عينيه على الحياة ، وهو كامل الارادة .. وهو يحمل ارادة رجل كامل قوى .. فهل يستطيع هذا الطفل أن يحدد مصيره .. هل يستطيع أن يتحرر من عقدة الوقوف فى الوسط .. وأن يفرض وجوده على أحد المجتمعين .. فاما أن يكون أبيض له كل مقومات شخصية البيض ، أو أسود له كل مقومات شخصية السود ؟..

هذه هى حالة سامى ..

لقد ولد سامى كأحد أبناء الماتيس ، وهو يحمل ارادة رجل قوى .. ولد وهو فى الثلاثين من عمره ..

قبل ذلك لم يكن يعرف أنه ماتيس .. وعاش طفولته وشبابه في مجتمع مستقر من الناحية النفسية ، تكونت له فيه ارادة كاملة يستطيع أن ينطلق بها من موقف الوسط ، ويسير ما شاء من خطوات الى الأمام .. لم تفرض عليه شخصية الوسط ، ولا عقلية الوسط ، ولا تقاليد الوسط ، ولا عواطف الوسط ، ولا الاحساس الديني الوسط .. ثم بعد ذلك .. بعد أن شب كانسان كامل ، أعيدت ولادته من جديد كأحد أبناء الماتيس .. فهل يستطيع أن يستعمل ارادة الاختيار ويفرض وجوده على أحد المجتمعين اللذين يحيطان به .. أم يغلبه المجتمعان — الأبيض والأسود — ويفرضان عليه موقف الوسط ؟

هذا هو الخاطر الجريء الذي خطر لي وأنا أعد بحثي ..

وقد أتعبني هذا الخاطر كثيرا ، ودفعني الى بذل كثير من الجهد في محاولة تحقيقه واثباته من الناحية العلمية ..

ولكني لم أكن أستطيع أن أحققه وأثبته الا اذا جاءتني أخبار سامي ، ووقفت على تطورات نفسه ، بعد أن أعدت ولادته من جديد كأحد أبناء الماتيس ..

ولم تصلني أي أخبار عن سامي ..

وكنت عقب عودتي من افريقيا قد انتظرت أكثر من شهر ، لعل رسالة تصلني من سامي أو سليم .. رسالة شكر على الجهود التي بذلتها لهم .. خصوصا وأني تركت لسليم عنواني ، وأوصيته أن يكتب لي ليطمئنني على حالة سامي وسامية .. ولكن لم يصلني شيء .. ولم أستطع أن أفسر هذا الاهمال الا

بأن أحداثا قد وقعت فى محيط العائلة ، منعت سليم من الكتابة الى .. واشتدت لهفتى أو على الأصح ، شهوتى الاستطلاعية كطبيب نفسانى ، على الوقوف على هذه الأحداث .. فكتبت رسالة الى سليم .. رسالة رقيقة أشكره فيها على ضيافته لى ، وعلى مصاحبتى فى الطواف بمدينة باماكو ، وأطمئن فيها على صحة أفراد العائلة .. ولم أحاول فى رسالتى أن أتعرض لحالة سامى وسامية بالتفصيل ، لأنى لم أكن أعرف شيئا عما يمكن أن يكون قد حدث لهما من تطورات ..

وانتظرت شهرا ..

ولم يصلنى الرد ، رغم أنى أرسلت الرسالة بالبريد الجوى العاجل المسجل ..

وانتظرت شهرا آخر ، وأنا أعلل نفسى بأن المسافة بين القاهرة وباماكو بعيدة ، والمواصلات بينهما مضطربة ، وقد يستغرق وصول الخطاب ، ثم وصول الرد عليه أكثر من شهرين .

ومضت ثلاثة شهور ، ولم يصلنى شيء ..

ويئست ..

وبلغ من يأسى أن قررت السفر مرة ثانية الى باماكو ثم الى عدة مدن افريقية أخرى ، لعلى ألتقى بسامى ، أو لعلى اذا لم ألتق به ، ألتقى بحالة أخرى تماثل حالته ، أستطيع أن أحقق بها هذه النظرية العلمية الجديدة فى علم النفس التطبيقى ، التى خطرت لى .. وكل ليلة — بلا مبالغة — أنكب على بحثى ،

وأقلب فى مذكراتى الطبية وصورى الفوتوغرافيـة ، وأذكر سـامى .. وكلما ذكرته لم أسـتطع أن أنكر على نفسى ، أن العلاقة بينى وبينه ، ليست مجرد علاقة علمية فحسب .. ليست علاقة عالم بالبوتقة التى يجرى فيها تجاربه .. ولكنها أكثر من ذلك .. ان عاطفة الأبوة بكل ما فيها من حنان ولهفة ، تغلبنى كلما ذكرته ..

ومضت عشرة شهور ..

وذات مساء كنت فى عيادتى .. وانتهيت من جلسة تحليلية مع احدى « الحـالات » .. وما كادت « الحالة » تخرج من الحجرة ، حتى دخل مساعدى — وأنا لا أسميه التومرجى — وتعجبت لدخوله ، خصوصا وأنى لم أسـتدعه .. فالنظام فى عيادتى يقضى بأن أستريح لمدة عشر دقائق بين كل حالة وأخرى من الحالات التى تعرض على .. ثم تدخل الحالة التاليـة طبقا لكشف الزيارات الذى أوافق عليه قبلها بأسبوع .. فانى أضع ترتيب الحالات التى أعالجها أسبوعا بأسبوع ، نظرا لطول مدة الجلسة التى تستغرقها كل حالة .. ولم تجر العـادة أن يدخل مساعدى على بين كل حالة وأخرى ، الا اذا استدعيته ، أو بعد أن تنتهى كل حالات اليوم فيدخل ليبلغنى بالمكالمات التليفونية ، أو بأى حـدث آخر .. وكنت حريصـا على هـذا النظام ، ومساعدى حريص عليه أيضا ، ولم يحدث أن أخـل به طوال السنوات التى عمل فيها معى الا فى مناسبات نادرة ..

لذلك تعجبت عند ما دخل على مساعدى دون أن أستدعيه ،

ولذلك أيضا كان يبدو على وجهه التردد والاعتذار ، وهو يقدم لى بطاقة صغيرة قائلا :

ـــ صاحب هذه البطاقة يصر على أن يقابلك حالا .. انه يقول انه لم يأت للعلاج .. وأنه جاء من باماكو .. وبما أنى أعلم أنك مهتم بوضع بحث عن افريقيا ، فقد اعتقدت أنك و ..

وقبل أن يتم كلامه اختطفت البطاقة من يده فى لهفة ..

انه سامى ..

سامى نفسه ..

سامى الداعوق .. واسمه مكتوب على البطاقه باللغة الفرنسيه ..

وأخللت أنا الآخر بنظام عيادتى وطلبت من مساعدى أن يدعو سامى للدخول على الفور ..

ووقفت أتطلع الى باب غرفتى بعينين متلهفتين وخواطر كثيرة تمر فى رأسى بسرعة ..

هل سأراه شاحب الوجه ، منكس الرأس ، ينظر الى بوز حذائه ، كما تعودت أن أراه فى باماكو .. وهل سأسمع منه هذ الكلام الكثير .. كلام بلا معنى .. ثم ما الذى جاء به الى القاهرة .

وقلبى يخفق .. ولا أدرى لماذا كنت أميل فى هذه اللحظة العابرة الى التشاؤم ..

لقد خيل الى أنى سأرى سامى انسانا محطما .. منهكا ..

بل ربما دخل على وهو يعرج .. أو ذراعه مكسورة .. أو مشوه الوجه ..

وفتح الباب ..

ودخل سامى ..

طويل .. قوى .. واثق من نفسه .. وجهه أشد اسمرارا مما تعودته .. عيناه مستقرتان .. وابتسامة مرحة تقفز بين شفتيه ..

ومددت له يدى مصافحا .. وقلبى فى يدى ..

ولكنه تجاهل يدى ، واحتضننى بين ذراعيه .. وأحسست بنفس الرغبة فى ضمه الى صدرى .. كأنى أضم ابنى الذى اشتقت اليه ..

ثم سألته والسعادة بلقائه تملأ صدرى :

— كيف حالك ..

قال فى قوة :

— كما ترى فى أحسن حال ..

قال :

— والعائلة ؟

قال :

— كلهم بخير .. وكلهم يبلغونك الحب والشوق ..

قلت :

— وسامية ؟

قال وهو يضحك فى حنان :

— انسانة أخرى .. انها لم تعد تكتفى بأعمـال البيت .. انها تشارك سليم فى أعمال الدكان .. تصور .. من كان يعتقد أن سامية يمكن أن تعمل كل ذلك ..

وكدت أسأله فى لهفتى ، عن حال بيندا ، ولكنى تراجعت .. خفت ألا يكون هذا هو وقت السؤال عنها .. وسألته :

— ماذا جاء بك الى القاهرة .. انها مفاجأة ..

قال وهو يبتسم :

— هذه قصة طويلة ..

ولم يكن لدى وقت لسماع القصص الطويلة ، فعدت أسأله :

— لقد أرسلت لكم خطابا ..

قال وهو يبتسم :

— وصلنا ..

قلت :

— ولم أتلق ردا ..

قال وكأنه يرى شهوة الاستطلاع فى صدرى :

— هذه قصة طويلة أخرى ..

قلت وأنا فى لهفة لسماع هذه القصص الطويلة :

— اسمع .. ان أمامى ساعة أنتهى بعدها من عيادتى .. ماذا تعمل هذا المساء ؟

قال :

— لا شىء .. لقد جئت الى القاهرة خصيصا لألقاك ..

قلت :

— اذن ، اذهب وتجول فى شوارع القاهرة ، أو اجلس فى محل جروبى المواجه للعيادة .. وعد الى بعد ساعة .. وسنتناول العشاء سويا ..

ومد يده وصافحنى فى حرارة قائلا :

— اتفقنا ..

ولم يكد يصل الى الباب حتى عاد والتفت الى قائلا وهو يبتسم :

— انك لم تسألنى عن بيندا .. انها تسلم عليك كثير السلام !

وخرج ..

وأنا أنظر وراءه فى دهشة ..

وبذلت جهودا عنيفا حتى أتغلب على دهشتى ، وحتى أحرر عقلى من الخواطر الكثيرة التى تتدفق فيه ، لأتفرغ لاستقبال الحالة التالية التى تنتظرنى فى غرفة الانتظار ..

***

وعاد سامى بعد ساعة بالضبط .. وصحبته فى سيارتى وذهبنا الى بيتى فى الزمالك ، لنتناول العشاء .. وحرصت طول هذا الوقت على أن يكون حديثنا عاما عن ذكريات باماكو ، وعن القاهرة التى اصطدم سامى بضخامتها لأول مرة فى حياته .. لم أحاول فى هذه الفترة أن أسأله عن هذه القصص الطويلة

التي أشار اليها .. كنت أريد أن أسمعها متكاملة متسلسلة دون أن يتخللها رنين الشوك والسكاكين ونحن نتناول العشاء ..

وبعد العشاء ، جلسنا فى غرفة مكتبى على مقعدين كبيرين ندخن ونشرب القهوة ، وقلت له فى صوت متراخ كأنى طفل يريد أن يسمع حكاية قبل أن ينام ، فى حين أن عقلى كله منتبه كأنه يشب على أطرافه ليرى المشهد كاملا :

— والآن لنبدأ القصة من أولها ..

قال :

— من أين ؟

قلت :

— أين اختفيت بعد أن تركت غرفتى فى الفندق .. فى باماكو .. ولماذا لم تأت لوداعى ؟

واسترخى فى مقعده وهو ينظر أمامه كأنه يمد عينيه ليصل الى باماكو ، وقال :

— أحسست يومها أنى فى حاجة الى أن أخلو الى نفسى .. كنت فى حاجة الى أن أراجع قصة حياتى التى كنت أجهلها وأطلعتنى عليها .. وكانت حقيقة أنى من أم زنجية تقف فى حلقى كالحجر .. وكنت فى حاجة الى أن أبتلع هذا الحجر ، وأن أهضمه .. فأخذت بيندا وذهبت بها الى الغابة ، حتى أهضم الحجر فى هدوء ..

قلت :

— لقد سألنا عنك فى القرية فلم نجدك ..

قال :

— لم نذهب أنا وبيندا الى القرية .. بل ذهبنا الى الجانب الآخر من النهر ، عند سفح جبل كولوبا .. نفس المكان الذى اختبأ فيه أبى وأمى عند ما تزوجا .. وعند ما ولدت .. وأقمنا هناك بين الأشجار كوخا من أكواخ الزنوج ، اختبأنا فيه ..

قلت :

— وكيف تحققت من المعلومات التى أدليت لك بها ..

قال :

— لم أحاول أن أتحقق منها .. كنت مقتنعا بأن ليس هناك سبب يدعوك لأن تكذب على ، أو تخترع قصة من خيالك .. كل ما هنالك أنى كنت أستزيد بيندا من التفاصيل .. أياما طويلة قضيتها وأنا أسألها عن أدق التفاصيل .. وكنت أحس دائما أن بيندا قريبة منى جدا .. قريبة من قلبى .. أحسست بأنى فعلا أحبها .. هذا الاحساس دفعنى لأن أصدق أنى تزوجتها عند ما كنت مزدوج الشخصية .. ودفعنى الى زيادة التسليم بكل التفاصيل التى أسمعها .. ولكنى كنت حائرا .. كنت مشلول العاطفة فيما عدا احساسى بحب بيندا .. لم أكن أستطيع أن أثور ، أو أن أهدأ .. أو أغضب أو أفرح بما أسمعه .. مضت على أيام لم أكن أحس فيها بأنى انسان أبيض ، ولا بأنى انسان أسود ، ولا بأنى ماتيس .. كل ما بدأت أحس به هو أنى أريد أن أرى هذه المرأة التى اكتشفت أنها أمى .. لم أكن أيامها أحس نحوها بعاطفة الابن ، ولكنى كنت أريد أن أراها ،

كأنى أريد أن أرى لون دمى .. مجرد رغبة فى الاستطلاع .. وكنت خائفا .. خائفا من أن أذهب اليهـا .. ومضى أكثر من خمسة عشر يوما .. وأنا متردد فى الذهاب .. ثم ذهبت ..

وسكت سامى ، وهو يبتلع ريقه ، ونظرته ممـدودة الى الأمام .. وظل فترة طويلة ساكتا .. وأنا ساكت بجانبه .. ثم قلت كأنى أفيقه من أحلامه :

— لقد كان الكاباكا يبحث عنك خلال هذه المدة .. وعن بيندا ..

قال كأنه يحادث نفسه :

— أعتقد أنه عرف عذابنا ، ولكنه لم يشأ أن يفرض ارادته علينا .. انه فيلسوف كبير .. تركنا الى أن نعود اليه بارادتنا .. وقد عدنا .. صحوت ذات صباح وأنا لا أطيق الانتظار حتى أرى أمى .. وأخـذت بيندا وذهبنا الى القرية .. واستقبلنا الكاباكا صامتا ، منتصبا أمامى كظلال الليل .. لم يتكلم .. لم يسألنى شيئا .. وأنا أنظر فى وجهه فأرى فيه أشياء كثيرة جديدة .. أرى فيه نفسى .. وأرى فيه بيندا .. وأرى فيه أمى .. انه خالى .. وتمتمت وقلبى فى حلقى : « أين هى ؟ » .. وفهم الكاباكا ما أعنيه .. ومد ذراعه القوى يشير بأصبعه نحو الكوخ الذى ترقد فيه أمى .. وتركنى أذهب اليها وحدى .. وبيندا تسير خلفى .. ودخلت الكوخ وركبتاى تتخليان عنى .. ترتعشان .. أكاد أقع فى كل خطوة .. ورأيتها .. كومة من العظام السوداء ملقاة على سرير جاف .. ولم أصدق أن هذه العظام هى أمى ..

لم أصدق .. لم أستطع أن أصدق .. ولكنها عند ما فتحت عينيهما وصوبتهما الى ، رأيتها .. رأيت أمي .. رأيت طفولتي .. رأيت المرأة التي كانت تدللني وتروي لي أساطير الزنوج .. وشهقت أمي عندما رأتني .. ومدت ذراعيها الى .. عظمتان مكسوتان بالجلد الأسود .. وشفتاها ترتعشان بشدة .. كانت تناديني اليها .. الى صدرها .. وقاومت .. ولكني لم أستطع أن أقاوم طويلا فألقيت نفسي بين ذراعيها ، فوق صدرها ، وأنا أهمس « أمي .. ماما » .. وأحاطتني بذراعيها وضمتني بشدة ، تصل الى حد أني تألمت .. قوة عجيبة كانت في ذراعيها اللتين تضماني .. كأنها جمعت كل حياتها فيهما حتى أبقى فوق صدرها الى الأبد .. ثم .. شعرت أنها همدت .. أنفاسها التي تهب على وجهي خمدت .. وتسممت قلبها .. توقف .. ماتت .. ماتت أمي وأنا فوق صدرها .. وحاولت أن أعتدل في جلستي بجانبها .. ورغم أن الفزع من الموت قد أثار في قوة الانتفاض ، الا أني لم أستطع أن أنتفض .. ذراعاها كانتا متخشبتين حول ظهري .. لا أستطيع الفكاك منهما .. تضماني الى صدرها الى الأبد .. صدر أمي ..

وسكت برهة يمسح دمعة كبيرة انحدرت على خده ..

وسكت أنا احتراما لدمعه ..

ثم قال وهو يتنهد ويزفر حزنه :

— وجاءت بينـدا وفكت ذراعي أمي من حولي ..

وأغمضت عينيها اللتين كانتا تبحلقان فى وجهى .. لكنى لازلت أشعر حتى اليوم أن أمى تضمنى الى صدرها .. والى الأبد ..

واستطرد قائلا وهو يحاول أن يبدد حزنه :

— ومن يومها عشت فى القرية .. لم أتعمد أن أعيش فيها .. ولم يدعنى أحد كى أعيش فيها .. ولكنى بعد أن خرجت من كوخ أمى .. شعرت أنى فى قريتى .. وعندما دخلت كوخ الكاباكا شعرت أنى أدخل بيتى .. كل شىء يبدو طبيعيا .. والأهالى ينظرون الى بلا تعجب ، وبلا تساؤل ، كأنى واحد منهم .. حتى طقوس الدفن الزنجية التى اتبعت عند دفن أمى لم تبد لى غريبة ولا منفرة .. بل أثارت دموعى .. ثم مع الأيام اكتشفت أنى أجيد لغة الولف .. ولم أكن أعلم أنى أجيدها الى هذا الحد .. ثم اكتشفت أنى أستطيع أن أرقص كل رقصات الزنوج .. ولم أكن أعلم ذلك أيضا .. عشت بين أهل أمى كأنى عشت معهم طول عمرى .. نسيت أنى أبيض .. ربما كانت بعض تصرفات أهلى تذكرنى بأنى أبيض .. وربما كان بعضهم يعاملنى بنوع من التعالى المشوب بالاحتقار .. وربما كان بعضهم لا يزال يغار منى لزواجى من بينــدا .. ولكن مع الأيام اختفت هذه التصرفات ، وضاعت هذه المعاملة .. ونسيت أنى نصف أبيض ، ونسوا هم أيضا ..

وسكت سامى ..

وقلت بسرعة :

— وسليم ؟!

وقطب حاجبيه وقال فى صوت حزين كأنه يرثى أخاه :

— لقد جاء سليم الى القرية عندما علم بوجودى فيها . ودهش عندما وجدلى أقيم بين الزنوج وأنا فى حالة طبيعية .. لقد تعود ألا يرانى بينهم الا وأنا فى حالة ازدواج الشخصية .. وألح على فى أن أعود معــه الى المدينة .. الى أهــل أبى .. وترددت .. لم أسترح لفكرة العودة الى الحياة فى بيت أبى .. ورغم ذلك كان يجب أن أجــرب .. فذهبت معه .. وتركت زوجتى بيندا فى القرية .. تركتها وهى تنظر الى بعينين مرعوبتين .. خافت أن أكون قد عدت الى حالتى السابقة .. حالة مرضى.. وطمأنتها .. وذهبت .. عشت مع ســامية وسليم أســبوعا ، حاولت فيه أن أكون طبيعيا .. أن أهدأ .. أن أســتريح .. أن أقنع نفسى أن هذه دنيــاى .. ورغم أن أحدا من كل المجتمع الأبيض لم يكن يعلم بقصتى .. سامية نفسها لم تكن تعلم .، الا أن المشكلة كانت فى نفسى .. ووجدت نفسى أواجه مشكلة الاختيار .. يجب أن أختار دنياى .. يجب أن أختار بين المدينة والقرية .. يجب أن أختار بين أهل أبى ، وأهل أمى .. واخترت .. عدت الى القرية .. الى دنياى .. واتفقت مع سليم على أن أبقى فيها .. وبقيت ..

وابتســمت ابتسامة كبيرة ، ونظر الى فى تعجب قائلا ولهجته اللبنانية تضج بين شفتيه :

— لماذا تبتسم يا دكتور .. ألا تصدقنى ؟

قلت وأنا أضحك :

— بالعكس .. انى أصدقك جدا .. لقد ذكرت الآن نتيجة بحث طويل كنت أعده ..

قال فى دهشة :

— أى بحث ؟

قلت :

— لقد قدرت أن مشكلة الاختيار ستواجهك .. ولأنك عرفت حقيقتك وأنت كامل الارادة ، فقد استطعت أن تختار .. أما الأولاد المخلطون الذين يواجهون المشكلة وهم أطفـــال ، فانهم يفقدون القدرة على الاختيار ، ويضطرون الى الوقوف فى الوسط .. وهكذا تكون مجتمع الماتيس ..

قال مبتسما :

— ان كل شىء تسمعه ، تحوله الى نظرية علمية ..

قلت :

— هذه مهنتى !

وبدأ سامى يشعل سيجارة ، وتعجلته قائلا فى لهفة :

— ماذا حدث بعد ذلك ؟

وهز كتفيه فى استخفاف قائلا :

— طردنى الفرنسيون ..

قلت فى دهشة :

— طردوك ! ! طردوك من أين ؟

قال :

— من جميع مستعمراتهم ..

قلت :

لمـــاذا ؟

قال :

— لأنى طالبت بحقوق أهلى .. لقد بدأت المشكلة عندما علمت أن شبان القرية يعملون فى احدى مزارع الفرنسيين بأجر أقل من ربع أجر العـــامل الأبيض .. أقل من ربع أجرى أنا .. أجر لا يكاد يفى بثمن الخبز .. فذهبت الى صـــاحب المزرعة وحاولت اقناعه بأن يدفع لهم أجرا كاملا .. حاولت اقناعه بكل الحجج المنطقية .. ولكنه رفض أن يقتنع .. وطردنى .. وقال عنى أنى مجنون .. وفى اليوم التالى نظمت مطالبة جماعية من عمال المزرعة .. ذهبت بهم كلهم الى صاحب المزرعة .. ولكنه لم يقتنع .. ورفع سماعة التليفون واستدعى البوليس فجاء وقبض على كل العمـــال .. سجنوا .. وضربوا .. وتركونى أنا لأنهم اعتقدوا أنى لست منهم .. واغتيظت .. اغتظت لأنه لم يقبض على كبقية أهل أمى .. وانتظرت الى أن جاء صاحب المزرعة بعمال آخرين ، فحرضتهم على الاضراب ، الى أن ترفع أجورهم .. ولكنهم اندفعوا فى ثورتهم وحطموا مكاتب المزرعة ، وأتلفوا كمية صغيرة من المحاصيل .. كمية صغيرة جدا ، ولكنها كانت تكفى لاعدام عشرة منهم .. والحكم على الباقين بالسجن .. وفى هذه المرة سجنت معهم .. ولكنهم أفرجوا عنى بعد أسبوعين .. ودهشت للافراج عنى .. ثم علمت أن سليم قدم رشاوى لضباط البوليس للافراج عنى ..

قلت فى دهشة :

— هل كان سليم مشتركا معك ..

قال :

— لا .. لقد كان بعيدا عنى .. وكنت أحرص على أن أبقيه بعيدا عنى .. فلم يكن مؤمنا بما أفعل ، وكان حريصا على صالح تجارته .. ولذلك لم يرد سليم على رسالتك .. خشى أن يقرأ الرقيب الفرنسى رده ، ويعتقد أنه يقوم باتصالات سياسية مع القاهرة .. خصوصا وانه كان موضـــوعا تحت المراقبة .. لأنه أخى .. ولأنه لم يتخل أبدا عن حبه لى ..

قلت وأنا أبتسم :

— لقد تصورت كل الأسباب لعـــدم الرد على رسالتى . الا هذا السبب ..

واستطرد سامى قائلا :

— لقد خرجت من السجن وأنا مقتنع بأن لا أمل فى أن يأخذ أهلى .. أهل أمى .. حقوقهم الا اذا خرج الفرنسيون .. فبدأت أشتغل فى السياسة .. فى الثورة .. وانضممت الى الحزب الديمقراطى الاشتراكى .. وأقنعت الكاباكا بالانضـــمام اليه .. كل أفراد القبيلة انضموا الى الحزب ، وأصبحنا نمثـــل داخله جناحا ثوريا قويا .. وكنت أقف وأخطب وســـط الزنوج . وكنت أشترك معهم فى حملات التخريب .. وعرف كل الوطنيين اسمى . فى كل أنحاء السودان الفرنسى .. وكانوا يسموننى

« سامو » .. واجدت الاختباء من البوليس .. ولكنهم قبضو على أخيرا بعد أن خانني أحد الجواسيس الزنوج .. ان الخيانة في كل المجتمعات .. فلماذا لا تكون بين الزنوج .. وبسرعة . في خلال ثلاث ساعات أمر الفرنسيون بترحيلي .. بطردي من افريقيا كلها ..

وسكت سامي برهة ثم قال في أسى :

— لقد رحلت دون أن أودع بيندا .. لم يسمحوا لي بتوديعها ..

ثم رفع رأسه الي وقال مبتسما :

— أتعرف أن بيندا حامل ؟ !

قلت في فرح صادق :

— مبروك .. أرجو أن يكون ولدا كأبيه ..

قال وهو يبتسم :

— أو بنتا كبيندا ..

وسكتنا نحن الاثنان كأننا نحيي على البعد بيندا .. ثم سألته :

— هل ستبقى في القاهرة طويلا ؟

قال :

— يومين فقط .. ثم أستمر في طريقي الى لبنان .. هناك أهل أبي ..

ثم ابتسم مستطردا :

— كان يجب أن أمر على القاهرة لأراك .. أنت الذى اكتشفتنى !

قلت فى صدق :

— أنت الذى اكتشفت نفسك .. عندما اخترت مجتمعك ..

***

وقضى سامى يومين فى ضيافتى ، ثم ذهبت أودعه فى المطار ، وقلت وأنا أشد على يده :

— أرجو أن تعود الى بيندا قريبا .. لترى ابنك ..

قال فى ايمان :

— سأعود قريبا .. بعد أن يخرج الفرنسيون .. بعد أن ننتصر .. وانتصارنا أقرب مما تتصور .. سننتصر قبل أن يولد ابنى .. اننا قوة هائلة ..

وكان يعنى الزنوج ..

تمت



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة في كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتدعمها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكري والأدبي والعلمي تترسخ في وجدان أهلي وعشيرتي أبناء وطني مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزا[illegible]

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨ مائة وخمسون قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب